نوابغ الفكر العربي

٢٨



بقلم الدكتور عبد الفتاح شلبي



دار المعارف بمصر

البهاء زهير

نوابغ الفكر العربي

٢٨

البهاء زهير

٥٨١ — ٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور عبد الفتاح شلبي

« وما زال شعري فيه للروح راحة
وللقلب مسلاة ، وللهم مصرف »
البهاء زهير

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

الفصل الأول

عصر البهاء زهير

١ ـ الحياة السياسية

عاصر البهاء زهير دولة بنى أيوب، وصدراً من دولة المماليك البحرية يبلغ ست سنوات .

ا ـ عهد بنى أيوب ونظام الحكم فيه :

قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية الشيعيّة ، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي ببغداد ، ولقّب الأيوبيين أنفسهم بالسلاطين، وحرصوا على أن يبارك الخليفة العباسي سلطتهم ؛ حتى تتخذ دولتهم الصبغة الشرعية ، فكانت خلع الخليفة من الفرجية السوداء ، والطوق الذهبي ترد إلى السلطان الأيوبي ، ويحتفل بها في مشهد عظيم .

وقد أخذ الأيوبيون بنظام الوراثة ، فأوصى صلاح الدين أن تقسم دولته على أولاده الثلاثة من بعده ، ولم يأخذ المماليك بنظام الوراثة هذا ، بل كان يتولى الحكم أشجعهم وأقدرهم ، حتى إذا كان السلطان بيبرس أعاد نظام الوراثة كما كان في عهد الأيوبيين .

ويلى وظيفة السلطان في المرتبة : وظيفة « نائب السلطان »[1] ، وهى وظيفة جديدة لم تكن في الدولة الفاطمية ، وقد دعت إليها الظروف الحربية التي اقتضت أن يتغيب السلطان عن الديار المصرية ، فكان لا بد من نائب له ، يصرف أمور الدولة في أثناء غيابه ، وقد كان من نواب السلطان صلاح الدين — أخوه الملك العادل ، وابن أخيه تقى الدين عمر ، وبهاء الدين قراقوش .

---

(١) « الحركة الفكرية في مصر » لعبد اللطيف حمزة : ٤٨ .

وكان هناك كذلك نواب للسلطان ينوبون عنه فى القضاء بين الناس ، وقد رتب السلطان الصالح نجم الدين أيوب نواباً بدار العدل يجلسون لإزالة المظالم ، فهرع الناس إليها من كل جانب ، ورفعوا ظلاماتهم ، فكشفت ، واستراح السلطان من وقوف الناس إليه[1].

كما فوض الصالح أيوب قضاء مصر والوجه القبلى لابن عبد السلام[2]. ومن الوظائف الدينية التى لها أهميتها — بعد وظيفة قاضى القضاة — وظيفة المحتسب ، وكان للمحتسب فى الدولة الأيوبية سلطة واسعة يراقب الناس فى الأسواق والطرقات والمساجد والفنادق ، ويرعى المعروف والفضيلة ، ويحول دون المفاسد والمنكرات[3].

وكان التغلب على الفرنجة فى الحروب الصليبية ، هو شغل الأيوبيين الشاغل ، ومن أجل ذلك لم يكن لدى هذه الدولة متسع للأخذ بمظاهر الخلفاء الفاطميين ورسومهم وتقاليدهم وأبهتهم وتحجبهم عن الناس ، كما صرفت الحروب الأيوبيين عن أكثر ما كان للفاطميين من نظم ، واكتفوا بالضرورى منها .

وقد اتخذ السلاطين الأيوبيون لأنفسهم وزراء يعاونونهم ، واشتهر فى دولتهم عدد من هؤلاء الوزراء عرفوا بالفطنة وحسن السياسة ، فمن وزراء صلاح الدين الوزير العظيم عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل[4] وبهاء الدين قراقوش . . . وأولهما كان أديباً وصاحب مذهب فى النثر الفنى . . . وأما بهاء الدين قراقوش فهو الذى أتم بناء سور القاهرة وهدم لبنائه جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة فى مكان السور . . . فاتهم بالاستبداد ولقب بهاء الدين بقراقوش أى «الطير الأسود» . . . ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم

---

(١) « السلوك » : ٣٠٧/١ .

(٢) « السلوك » : ٢٠٩/١ .

(٣) « المثل السائر » لابن الأثير : ٢٢٧/١ ط القاهرة .

(٤) « خطط المقريزى » : ٣٦٣/٣.

بالاستبداد والعسف . وقد ألف الأسعد بن مماتى كتاباً سماه « الفاشوش فى أحكام قراقوش[١] » .

ومن وزراء العادل « ابن النحال » ، وكان رجلا نصرانياً ثم أسلم . وصفى الدين بن شكر ، وكان يقال له : الصاحب . ويقول المقريزى فى خططه : إنه لم يلقب بلقب الصاحب وزير قبل صفى الدين هذا ... وقد حدثت جفوة بين العادل وصفى الدين فأقاله من منصبه . ولما مات العادل استوزر ابنه الكامل « ابن شكر » مرة أخرى ، ولكنه سلك سبيل الباغين والطغاة فصادره الكامل ، وأحاط بجميع موجوده ، وقبض عليه وعلى أولاده ، واكتفى الكامل بإخوة له من الرضاع ، فاتخذهم مستشارين يرجع إليهم فى أموره[٢] .

وأبقى الأيوبيون على بعض دواوين الفاطميين وموظفيها ورؤسائها . . . وكانت القلعة هى المقر الرسمى الذى تدار منه شئون الحكم والسياسة . . . وظلت كذلك إلى أواخر العهد المملوكى .

فمن الدواوين التى أبقى عليها الأيوبيون ديوان الإنشاء . . . وديوان الجيوش . وكان من نظار هذا الديوان : جمال الدين بن مطروح . . . وديوان الأسطول ومن نظاره الملك العادل أخو صلاح الدين ، وديوان بيت المال ومن نظاره فى أوائل الدولة الأيوبية الأسعد بن مماتى .

والمتتبع لتاريخ الأيوبيين يجد أن هناك وظائف أخرى ، فهناك الحجاب وقواد الأسطول ، وهناك أمير الطبلخاناة ، وهناك أمراء جاندار السلطان الذى يستأذن السلطان فى استقبال رجال الدولة ، وأعلى مراتب الأمراء : أمير مقدم ألف .

وبجانب هؤلاء مشرفون : فمنهم من يراقب الأمور المالية عامة فى جهة معينة من قبل السلطان أو الأمير ، ومنهم من يراقب المطبخ السلطانى والأطبخة به .

---

(١) « تاريخ مصر الحديثة » لجورجى زيدان .

(٢) « السلوك » : ١ / ٢٢٠ .

وقد ساد نظام الإقطاع فى مصر فى عهد الأيوبيين ، وكان السلطان يقطع كبار الأمراء والقواد إقطاعات يستغلونها . وتقوم مقام الرواتب لهم ، وقد تكون هذه الإقطاعات بلداً أو أكثر ، أو سوقاً أو ربعاً . . .

هذه صورة عامة لنظم الحكم ، والتكوين السياسى فى عهد هذه الدولة الأيوبية . وقد خضعت أكثر هذه النظم للطابع الذى اتسمت به هذه الدولة ، وهو الطابع العسكرى الذى كان ممثلا فى نضالها ضد الفرنجة فى الحروب الصليبية .

ولقد دعت الحروب الصليبية إلى ضروب من النشاط الحربى فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول : فقد عنى صلاح الدين الأيوبى بالأسطول ، وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول ، وعين له نواحى متعددة من الخراج ، كما زاد فى إقطاعاته ، كما عنى بتحصين القاهرة حيث أمر ببناء قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر ، وكان السلطان يعنى ليلا ونهاراً بترتيب أحوال الجنود ، وقد رصد صلاح الدين الأيوبى أموالا ضخمة لعمارة سور دمياط ، والنظر فى السلسلة التى بين البرجين ، وإعادة سور تنيس كما كان فى القديم ، وأمر بإنشاء الحراريق لنقل الجنود إلى الثغور البحرية .

وقد أشاع بيبرس حياة الجد والصرامة فى عهده فكان إذا ما عاد من الحرب استعرض جنوده ، واشترك هو وابنه فى مناوراتهم ، وفى المعارك الكبيرة كان المتطوعون يتزاحمون على التطوع مظهرين ضروب البسالة فى المقاومة الشعبية حتى كان عددهم يفوق عدد الجند ومن فى الخدمة[١] .

هذا وقد وقف الأدباء بجانب الجنود فى المعركة يستنجدون بشعرهم ونثرهم ويحرضون على القتال ، ويمجدون الأبطال ، ويسجلون المعارك ، ويتوعدون الأعداء ، ويتغنون بالنصر المبين ، وينشدون أهازيج الحماسة فاخرين .

---

(١) « النجوم الزاهرة » : ٨/٥ .

ب — ظهور المماليك :

فى أواخر الدولة الأيوبية ، استكثر الصالح نجم الدين أيوب من المماليك ، وقد عرفوا بذلك الاسم لأنهم فى الأصل أرقاء ، وجعلهم الصالح معظم عسكره ، وكوّن منهم فرقة الحرس السلطانى ، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه ، وأنشأ لهم قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط مصر ، وأسكن بها ألف مملوك سماهم البحرية لسكناهم بهذه القلعة على (بحر) النيل . وقد صار لهؤلاء المماليك النفوذ فى الحكم والجيش وشئون الدولة والسيطرة على المرافق العامة ، مما أدّى بهم إلى الطمع فى الاستقلال ، وتولى زمام الأمر . . . وكان منهم شجرة الدر ، وهى أول من ملك مصر من ملوك التُرك المماليك . . .

وبعد موت الصالح أساء ابنه تورانشاه الظن بالمماليك ، فأعرض عنهم وتوعدهم وصار إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشمع ، وضرب رءوسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد منهم باسمه ، فنفرت قلوب البحرية منه ، واتفقوا على قتله ، فضربه بيبرس البندقدارى بالسيف ، فتلقاه تورانشاه بيده فبانت أصابعه ، وأخذ يصيح : جرحنى البحرية ، والله لا أبقيت منهم بقية ! ! ، فقال البحرية بعضهم لبعض « أجهزوا عليه وإلا أبادكم » فدخلوا عليه بالسيوف ، ففر المعظّم إلى أعلى البرج ، وأغلق بابه ، فأضرموا النار فيه ورموه بالنشّاب ، فألقى نفسه من البرج هارباً إلى البحر فسبحوا خلفه فى الماء وقطعوه بالسيوف قطعاً ، حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً[1] .

واتفق المماليك على إمامة شجرة الدر سلطانة على مصر التى تزوجت من عز الدين أيبك التركمانى ، فسلبها كل سلطة ، فانتقمت لنفسها بقتله ، فقتلها ابنه المنصور انتقاماً لأبيه ، وتولى الأمر من بعده ، وأعقبه على الملك سيف الدولة قطز . . . الذى كان له جهاد مذكور فى رده طغيان التتار[2] .

---

(١) « السلوك » : ١/ ٣٦٠ .

(٢) « السلوك » : ١/ ٤٢١ .

٢ ـ الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كانت حياة الدولة الأيوبية حياة صرامة وجد ؛ إذ شغلت بدرء خطر الفرنجة . . . ومع ذلك فقد كانت هناك مناسبات يفرغ فيها الملوك والعامة إلى ألوان من الابتهاج والسرور ، تقام فيها الزينات ، وتعقد الاحتفالات :

فإذا ما وردت خلع خليفة ببغداد إلى السلطان خرج قاضي القضاة ، والشهود والمقرئون ، والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة ، وزينت البلاد ، وتضرب نوب الطبلخاناة[1] بالباب الناصري ثلاث مرات فى كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب الغوري ، ويركب السلطان بالخلع فى طريق فرشت بالبسط المزركشة .

كذلك كانت الأفراح تعم إذا ما عقدت معاهدات الصلح بين المسلمين والفرنجة ، ويكون يوم الصلح يوماً مشهوداً يشمل الفرح فيه الطائفتين لما نالهم من طول الحرب أو القتال ، فتختلط عساكر الفرنجة بعساكر المسلمين ، ويرحل جماعة من هؤلاء إلى مدن الفرنجة ، ويدخل خلق عظيم من الفرنجة إلى بلاد الإسلام زائرين آمنين[2] ، ويتبادل ملوك الفريقين الهدايا والألطاف ، و فقد أرسل ملك الفرنجة إلى الملك الكامل هدية سنية فيها عدة خيول ، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر ، فتلقاها الكامل بالقرب من القاهرة بنفسه . وجهز الكامل ملك الفرنجة بهدية من تحف الهند والصين والعراق والشام ومصر والعجم وفيها سرج من ذهب ، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية[3] .

كما كانوا يحتفلون بالنصر ، فتدق البشائر فى طول البلاد وعرضها ، وتمد الأسمطة السلطانية ، فتنال منها طبقات الشعب ، ويكون اليوم يوم فرح وسرور ،

---

(١) الطبلخاناة : فرقة الموسيقى السلطانية ، وتصحب السلطان فى الأسفار والحروب (صبح الأعشى : ٤/ ٢٨) .

(٢) « السلوك » : ١/ ١١٠ .

(٣) « السلوك » : ١/ ٢٢٣ .

وترد قصائد الشعراء مهنئة بالانتصار ، وتوزع الهدايا والعطايا والهبات ، وتنثر على العامة الدراهم والدنانير(١) .

ومن المواكب التي عني بها الأيوبيون والمماليك موكب الاحتفال بكسر الخليج فيكثر المتفرجون ، وتزدحم الغوغاء ، ويشترك فيه السلطان والأمراء والناس جميعاً .

وكان النوروز القبطي من جملة المواسم بمصر ، تعطل فيه الأسواق ويقل فيه سعي الناس في الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم(٢) .

وفي آخر شعبان كان قاضي القضاة يركب لرقية الهلال(٣) ، وفي العيدين يحضر السلطان الصلاة والخطبة ، ويشمل الأمراء ، وأرباب العمائم بخلعه ، ويقدم سماط توسعت الهمة فيه ، فيؤكل ما عليه ، ثم تسق الأشربة الحلوة ، والأفاويه المطيبة بمياه الورد المبردة(٤) .

كذلك كان يوم عاشوراء من أيام السرور التي احتفل بها الأيوبيون يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسطون في المطاعم ، ويصنعون الحلوى ، ويتخذون الجديد ، ويكتحلون على عكس ما كان عليه الفاطميون .

وفي أعياد النوروز ، وكسر الخليج خاصة يتجاهر الناس — بالمنكرات — ويتجمع المؤنثون والفاسقات ، وتشرب الخمر في الطرقات ، ويتراجم الناس بالبيض ، ويتصافعون بالأنطاع .

وقد كانت الحياة مزيجاً من هدى ومجون ، وطاعات ومعاص ، ففي عهد صلاح الدين كثرت بيوت المزر(٥) بالإسكندرية ، فهدم منها مائة

---

(١) « السلوك » : ١/٢١٠ — ٢١٢ .
(٢) « السلوك » : ١/١٣٧ .
(٣) المصدر السابق : ١٤٢ .
(٤) « خطط المقريزي » : ٢/٢١٠ — ٢١١ .
(٥) نوع من الجعة يصنع من الذرة أو الشعير أو الحنطة .

وعشرين بيتاً ، وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته ، وفوض الأمور إلى وزيره ، ثم أقلع عن المعاصى ، وأقبل على الطاعات ، ولبس الخشن من الثياب ، وشرع فى نسخ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه ، وجالس الفقراء ، والفقهاء ، وصام النهار ، وقام الليل [١] .

كان كل هذا فى الوقت الذى رعت فيه الدولة الأيوبية طبقة الصالحين من الفقراء المتصوفين ، فبنى لهم صلاح الدين الأيوبى ، خانقاه ، ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبنى لهم حماماً بجواره ، فأعفاهم من مذلة الكسب ، وتفرغوا للعبادة آمنين .

ووقف السلطان صلاح الدين الأيوبى ناحية نقادة بقوص ، وثبت ناحية سنديس من القليوبية على أربعة وعشرين خادماً لخدمة الضريح النبوى الشريف [٢] .

وسار المماليك على سنة بنى أيوب ، وأكثروا من بناء الخوانق ، ومكنهم من ذلك ما كان لديهم من وقت فسيح ، وما كانوا عليه من الغنى والثراء .

* * *

وقد تأثرت الحياة الاقتصادية أعظم التأثر بالنيل ، فهو إن زاد كان الخصب وكان النماء ، ورخصت الأسعار وعم الرخاء ، وإن نقص كان القحط والغلاء والبلاء والجوع ، وقد توقف النيل عن الزيادة فى عهد الدولة الأيوبية ، فأكل الناس القطط والكلاب ، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع .

وقد واجه الأمراء والملوك هذه المجاعات ، وخففوا من وقعها ، فضربوا على أيدى التجار ، ومنعوهم الاحتكار ، ووزعوا الفقراء على الأمراء : فأمير المائة يطعم مائة ، وأمير العشرة يطعم عشرة وهكذا .

---

(١) « السلوك » : ١١٩/١ .
(٢) « السلوك » : ٥٧/١ .

وكانت الزكوات تجمع وتفرق فى مصارفها ، وأخذت الزكاة من البضائع وعلى المواشى والنخل والخضراوات[١] .

واهتم الأيوبيون بالزراعة وتربية الماشية كالأبقار والأغنام ، وقد كان من الغلات المشهورة فى عهدهم : القمح ، والشعير ، والفول ، وقصب السكر ، والنخيل ، والرمان ، والقطن ، وقد أقيمت على هذه الحاصلات ضروب من الصناعة كغزل القطن ونسجه ، وصنع أثاث المنازل ، واتخاذ الملابس من الصوف والقطن والحرير ، وصناعة الحلوى التى كانت لها منزلة فى الأسمطة السلطانية التى تمد فى الأعياد ، ويبعث منها مقادير كبيرة إلى منازل الوزراء وكبار رجال الدولة[٢] .

كذلك أنشأ الأيوبيون أسطولا لنقل المتاجر ، وكان أكثر تجاراتهم مع بلاد النوبة ، وبلاد الشرق الأوسط ، وبحر الروم ، ومن التجارات الرابحة فى ذلك العصر تجارة الرقيق الذين كانوا يؤلفون جزءاً من جيش الخلافة ، وكانت قوص مركزاً مهماً للتجارة تمر بها القوافل التجارية الذاهبة إلى البحر الأحمر ، والراجعة منه ، ونهضت التجارة واتسع نطاقها بعد أن أمن صلاح الدين طريق الشرق التجارى بانتصاره على الصليبيين فى الشام[٣] .

وفى ظل من النشاط الاقتصادى زادت حركة البناء والتعمير ، فقد عهد صلاح الدين إلى وزيره الأمير بهاء الدين فى أن يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها ، فأنفذ بهاء الدين ما عهد إليه بهمة ونشاط ، فمهد الطرق ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، والسدود ، واستخدم لذلك حجارة بعض الأهرام الصغيرة التى كانت تحيط بأهرام الجيزة ، وأنشأ طريقاً يمتد طولا على ضفة النيل سهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى ، ووضع أساس قلعة الجبل عند الطرف الشمالى من جبل المقطم وعلى سفحه وما تزال آثارها باقية إلى اليوم ، وتعرف

(١) « السلوك » : ١/ ٤٤ — ٤٥ .

(٢) « خطط المقريزى » : ٢/ ٢١٠ — ٢١١ .

(٣) « معجم البلدان » لياقوت : قوص .

بقلعة الجبل أو قلعة القاهرة .

وجعل بهاء الدين فى القلعة بئراً عميقة تمد الجنود بالماء تسمى بئر يوسف ، ويظن بعض العامة أنها سميت بذلك نسبة إلى يوسف الصديق بن يعقوب ، والصحيح أنها منسوبة إلى يوسف صلاح الدين بن أيوب .

كما ابتنى بهاء الدين صوامع كبيرة فى الفسطاط لخزن الحاصلات ، ولما فرغ من ذلك أخذ يهتم بإتمام سور القاهرة ، فبناه سوراً ضخماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والقلعة ، وبنى قلعة المقس ، وهى برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع أولاد عنان .

كما بنى الأمير فخر الدين جهاركس قيسارية بالقاهرة ، وهى التى قال عنها التجار الذين طافوا بالبلاد : لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها ، وقد بنى فخر الدين بأعلاها مسجداً كبيراً ، وربعاً معلقاً .

وكان بالقاهرة — فى ذلك الحين — دار تسمى دار التفاح تجاه باب زويلة ترد إليها الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة[١] ، وقد شرع الملك الكامل سنة ٦٢٨ هـ فى حفر النيل وعمل فيه بنفسه ، وعمل معه الأمراء والجنود ، واستمر الماء فيما بين مصر والروضة لا ينقطع فى زمن الاحتراق ألبتة .

وكان الملك الكامل عند زيادة النيل يخرج بنفسه ، ويشرف على حراسة الجسور ، ورتب فى كل جسر من الأمراء من يتولاه ومتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقوبة ، فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة زائدة . . .[٢] وهو الذى بنى مدينة المنصورة تخليداً لانتصاره على الصليبيين . . .

---

(١) « السلوك » : ١٤٨/١ .

(٢) المصدر السابق : ٢٤١ — ٢٤٨ .

٣ ــ الحياة الثقافية

نشطت الحياة الثقافية فى عهد الدولة الأيوبية والعصر المملوكى ، وربما كان لهذا الاتصال الطويل بين الشرق والغرب فى الحروب الصليبية أثر فى هذا النشاط .

وكان ملوك بنى أيوب يحبون العلم ، ويحتفون بالعلماء ، ويجالسونهم ويسمعون منهم ، فهذا صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يجالس المشايخ من أهل العلم ، وكان يقف صادر الإفرنج على الفقهاء ، كما وقف عليهم الضرائب التى كانت تفرض على تجار الفرنج الواصلين بالمتاجر من بلادهم إلى ميناء الإسكندرية ، وسمع الحديث على الحافظ أبى الطاهر أحمد السلفى ، كما قرأ الموطأ على الفقيه أبى الطاهر بن عوف ، وقرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وهو على ظهر فرسه[١] .

وقد سمع العزيز عماد الدين بن صلاح الدين (ت ٥٨٩ هـ) ــ الحديث من السلفى وابن عوف ، وحدث[٢] ، كما سمع الملك العادل منهما ، وكان يحب السنة ويكرم العلماء ، وله صنف الإمام فخر الدين الرازى كتاب « تأسيس التقديس » بعث به إليه من بلاد خراسان[٣] .

وكان الملك المنصور ناصر الدين (ت ٦٢٢ هـ) إماماً مفتياً فى عدة علوم ، وله شعر جيد . وكذلك كان الملك الأفضل على بن صلاح الدين[٤] .

ولم يقتصر هذا النشاط على علوم الشريعة واللغة ، بل تعدّتها ــ بقدر ــ إلى الرياضة ، والحكمة ، والهندسة ، قالوا : « ولما رحل إمبراطور الفرنجة إلى عكا وكان عالماً متبحراً فى علم الهندسة ، والحساب ، والرياضيات ــ بعث إلى الملك

---

(١) « السلوك » : ١/ ٤٣ .
(٢) « السلوك » : ١/ ٤٢ .
(٣) « السلوك : ١/ ١٩٤ .
(٤) « السلوك » : ١/ ٢١٦ ــ ٢١٧ .

الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى — المعروف بتعاسيف — فكتب جوابها[١] .

وجرت بين يدى تورانشاه (ت ٦٤٨ هـ) المباحثات والمناظرات فى أنواع من العلوم وكان قد مهر فيها ، وعرف الخلاف والفقه ، والأصول ، وكان جده الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم ، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة ، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه ، ولازم تورانشاه الاشتغال بالعلم إلى أن برع[٢] .

وكانت زيارة سلطان مصر إلى الشام فرصة يحسن فيها إلى الناس ، ويخلع على الأعيان ، ويتصدق على أهل المدارس والربط . . .

واقتدى المماليك بالأيوبيين فى رعايتهم للعلم والعلماء .

وكانت المساجد والخوانق والرباطات والزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء ، كما كانت مأوى المنقطعين للعلم والزهادة والعبادة ، الواردين من البلاد الشاسعة .

واشتهر من الخوانق خانقاه : سعيد السعداء ، أحدثها صلاح الدين الأيوبى ووقفها على فقهاء الصوفية ، وولى عليهم شيخاً نعت « بشيخ الشيوخ » ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً .

وأنشئ كثير من المدارس فى العصر الأيوبى ، والمملوكى ، وتسابق فى إنشائها الملوك والأمراء ، والوزراء ، ومستخدمو الدولة والأغنياء والمدرسون ، كما ساهم أغنياء التجار فى إقامة دور العلم[٣] .

كما ساهمت سيدات الأسرة الأيوبية مساهمة مثمرة فى تشييد المدارس ،

---

(١) « السلوك » : ٢/٢٣٢ .

(٢) « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل : ٣٦٧ ب .

(٣) « خطط المقريزى » : ١٩٤ — وخطط الشام : ٦/١٠٠ .

والوقف عليها[١] .

بل شاد بعض الخدم بعض المدارس ، مقتفين بذلك أثر سادتهم[٢] .

وامتلأت دور الكتب العامة والخاصة بالمجلدات ، قالوا : « لما وقعت الحوطة على دار القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل حملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد ، وحمل من داره خشب خزائن الكتب منفصلة ، وحملها تسعة وأربعون جملا ، والجمال التي حملت الكتب تسعة وخمسون : على ثلاث دفعات ، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب « الأيك والغصون » لأبي العلاء المعري في ستين مجلداً[٣] .

وكانت قوص – وإليها نسب البهاء زهير – مركزاً من المراكز الثقافية في ذلك العهد بجانب القاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب ، وقد حفلت قوص بالمدارس التي درس فيها طائفة من مشهوري العلماء ، فيهم ابن دقيق العيد ، وكثير من رجال أسرته ، وقد غلب على مدينة قوص الزهد والتصوف والعلم .

وقد سار الأيوبيون على سنة الفاطميين في احتفالهم بدور الكتب ، فأنشأوا في المدارس التي أسسوها خزائن للكتب ، ورتبوا قُوّاماً يشرفون عليها .

واحتل أدباء هذا العصر مكانة عالية : كانوا أصحاب السر من السلاطين وبمنزلة الوزراء منهم ، وكان لهم مكان الإجلال ، ولما سار القاضي الفاضل من دمشق ولحق بالقاهرة خرج السلطان العزيز بن صلاح الدين إلى لقائه ، وأجل قدومه وأكرمه ، وقد فوض الأفضل أموره كلها لضياء الدين بن الأثير .

وقد سفر الأدباء عند الملوك ، يحاولون الإصلاح بينهم ويسعون بفك الاعتقال عنهم كما فعل محيي الدين بن الجوزي ، وجمال الدين بن مطروح[٤] .

(١) « ذيل الروضتين » لأبي شامة : ١١٩ و « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفداء : ١٧٤/٣ .

(٢) « ذيل الروضتين » لأبي شامة ٩٥ ، و « النجوم الزاهرة » : ٢٦٤/٦ .

(٣) « السلوك » : ٢٣٢/٢ .

(٤) « السلوك » : ٢٩٣/١ .

أما الفقهاء والمتصوفة وشيوخ الإسلام فقد كانوا من الدولة فى مكان القيادة والريادة ، جلسوا إلى دار العدل للقضاء نيابة عن السلطان ، ودافعوا عن حقوق الشعب ، ووقفوا فى وجوه الحكام ، وأصدروا الفتاوى الجزئية فى شجاعة أدبية تعز عن النظير ، وكانوا قدوة صالحة فى تمسكهم بالمثل العليا وتعاليم الإسلام ، ونالهم فى سبيل الحفاظ على مثلهم الأذى : أبعدوا عن مناصبهم ، واعتقلوا ، فما وهنوا ولا استكانوا .

الفصل الثانى

البهاء زهير فى عصره

١ ـ حياته

ا ـ نسبه :

أملى البهاء زهير نسبه على معاصره ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وذكر أنه أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبي العتكى الأزدى .

ويزيد صاحب الشذرات على هذه النسبة : المكى ثم القوصى .

كذلك أخبر البهاء زهير صاحب الوفيات أن نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة، والمهلب هذا له مكان فى التاريخ فهو صاحب الحروب والفتوح ، قال عنه أبو إسحق السبيعى : « لم أر أميراً أيمن نقيبة ، ولا أشجع لقاء ، ولا أبعد مما يكره ، ولا أقرب مما يحب من المهلب » .

ووصفه عبد الله بن الزبير بأنه سيد العراق .

ب ـ كنيته :

يكنى البهاء زهير بأبى الفضل كما ترى فى سلسلة نسبه التى رواها عنه ابن خلكان ، وقد رأيت صاحب النجوم الزاهرة يكنيه كذلك بأبى العلاء ، وقد ذكره بهاتين الكنيتين أيضاً صاحب الشذرات .

حـ ـ لقبه :

كان البهاء زهير يلقب « بهاء الدين [١] » .

وأول من لقب بالإضافة إلى الدين ـ كما يقول القلقشندى ـ بهاء الدولة بن

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٢ / ٨١ .

عضد الدولة بن بويه . فقد زاد : نظام الدين على لقبه ، فكان يلقب : بهاء الدولة نظام الدين . وكانت الألقاب مضافة إلى الدين يمنحها كبار الدولة بإذن من السلطان ، وبمضى الزمن استعملها الناس من غير حاجة إلى إذن ، فكان شمس الدين ، وعز الدين ، وشهاب الدين ، وبهاء الدين . . .

د ـ مسقط رأسه :

قال البهاء لابن خلكان : إن مولده بمكة فى خامس ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وقال له مرة أخرى : إنه ولد بوادى نخلة[1] . . .

وليس بين القولين تناقض أو اختلاف : ففى ذكر مكة ـ فى القول الأول ـ تعريف بالأشهر الأعرف من بلاد الحجاز ، وفى ذكر وادى نخلة ـ فى القول الآخر ـ تحديد للمولد على وجه التعيين والتخصيص . . . هذا إلى قرب الشقة بين البلدين ، فنخلة ـ كما يقول ياقوت ـ واد بالحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين ، إحدى الليلتين من نخلة يجتمع بها حاجّ اليمن وأهل نجد . . . فيجتمع حاجّهم بالوباءة وهى أعلى نخلة ، وتسمى : نخلة اليمانية . . . وتسمى النخلة الأخرى : الشامية وهى ذات عرق ، وأعلى نخلة ذات عرق كانت لبنى سعد ابن بكر الذين أرضعوا رسول الله[2] . . .

هـ ـ طفولته وصباه :

قضى البهاء زهير طفولته وشطراً من صباه فى الحجاز ، ثم انتقل إلى قوص ، ولا يعرف على التحديد متى انتقل البهاء إلى الصعيد ، ولكن عبارة ابن خلكان فى الوفيات تهدى إلى أن البهاء كان بقوص صبيًّا ، وذلك إذ يقول فى ترجمة ابن مطروح : « من أهل صعيد مصر ، ونشأ هناك ، وأقام بقوص مدة[3] ثم قال : « وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير صحبة قديمة من زمن الصبا ، وإقامتهما

(١) « وفيات الأعيان » : ٢ / ٨٥ .

(٢) « معجم البلدان » ، نخلة .

(٣) « وفيات الأعيان » : ٦/٣٠٢ .

ببلاد الصعيد ، حتى كانا كالأخوين . . .[١] .

هذا كلام ابن خلكان ، على حين أن البهاء يقرر فى أبيات له أنه قضى زمن الصبا فى مسقط رأسه فى الحجاز ، وذلك إذ يقول فى قصيدة منها :

(سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها) ويا طول شوقى نحوها وحنينى !
منازل كانت لى بهن منازل وكان الصبا إلفى بها وقرينى
تذكرت عهداً بالمحصب من منى وما دونه من أبطح وحجون
وأيامنا بين المقام وزمزم وإخواننا من وافد وقطين
زمان عهدت الوقت لى فيه واسعا كما شئت من جدٍّ به ومجون
إذ العيش نضر ، فيه للعين منظر وإذ وجهه غض بغير غضون

وليس من العسير التوفيق بين ما يدل عليه هذا البيت من أن البهاء قضى صباه بالحجاز ، وبين ما يقرره ابن خلكان من أن البهاء كان صبياً عند ما انتقل إلى قوص ، فالتوفيق بين القولين أمر يسير ، فالبهاء قد قضى شطراً من صباه بالحجاز ، ثم انتقل — صبياً كذلك — إلى « قوص » حيث نشأ فيها ، ونسب إليها ، وصحب فيها ابن مطروح .

و — دراسته وثقافته :

يلقى الديوان — كما تلقى كتب التراجم والتاريخ العام — أضواء على حياة البهاء زهير يهتدى بها الباحث فى تناول ما كان عليه من ثقافة ، وما أصاب من معارف كانت شائعة فى عصره . . .

فابن خلكان يذكره على أنه من أحسن الفضلاء فى عصره نظماً ، ونثراً ، وخطاً[٢] . . .

ثم هو قد تولى ديوان الإنشاء ، ومن تولى هذا الديوان كان فى الدرجة العليا

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٢/٣٠٦ .
(٢) « وفيات الأعيان » : ٢/٨١ .

من البلاغة والبيان . . . [١]

وقد ربّى البهاء زهير فى « قوص » وهى يومئذ مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، وأهلها أرباب ثروة واسعة[٢] وقد عنى ولاتها ورؤساؤها بإنشاء المداوس بها ، وزوّدوها بالخزن التى احتوت جملة صالحة من الكتب النافعة ، واستقدموا لها مشهورى العلماء للتدريس بها[٣] وبذلك كانت « قوص » مركزاً هاماً من مراكز الثقافة فى ذلك العهد البعيد ، ومعينا فياضاً بالعلم ينهل منه كل من يريد . . .

وشعر البهاء يكشف عن مظاهر الثقافة العربية بألوانها المختلفات ، سواء أكانت شرعية ، أم لغوية ، أم أدبية . . .

فمن تعابيره الكاشفة عن ثقافته الشرعية واقتباسه من القرآن الكريم قوله :

هذه قصتّى ، وهذا حديثى   ولك الأمرُ فاقض ما أنتَ قاضى

ومن تعبيراته الفقهية قوله :

يا من وَلائى فيه نصٌّ بيّنٌ   والنصُّ عند القوم لن يتأولا

ومن استعماله لألفاظ مصطلح الحديث قوله :

مولى له فى الناس ذكرٌ مرسلٌ   قد أوردته السحبُ عنه مُسْنَدا

ويذكر المحدثين فيقول :

فللدمع من عينى معينٌ يمدُّه   فإن تسألوه تسألوا ابنَ معينِ

ويذكر الناسخ والمنسوخ فى قوله :

أبداً حديثى ليسَ بالـ   ـمنسوخ إلاّ فى الدّفاتر

ويقتبس من الحديث الشريف فى قوله :

---

(١) « صبح الأعشى » .

(٢) « معجم البلدان » : قوص .

(٣) « الطالع السعيد » : ٣٢٠ — ٣٢٥ .

هو للحسن مَشْرِقٌ فيه قد تَظْهَرُ الفتن[١]

ومن تعبيراته الفلسفية والكلامية قوله :

ويشرقُ وجهُ الأرض حين تحلُّها كأنكَ توحيدٌ حوته ، وإيمانُ

وقوله :

هذا هو الأدب الذى أنشأته فاهتزَّ منه روضُه المطلُول
عطَّلتُه لما رأيتك معرضاً عنه ، وما من مَذْهَبِى التعطيل

ومن التعبيرات التى تكشف عن ثقافته الأدبية قوله :

سيرضيك منها ما يزيد على الرِّضا ويستعبدُ ابنَ العبدِ والمتلمِّسا[٢]

وقوله :

ورب راية مجد قد كنتُ فيها عَرابة[٣]

وقوله مشيراً إلى الأمثال :

على مثلها يبكى المحب صبابة فيا مقلتى ، لا عطر بعد عروس

وهو قارئ يتخذ أنيساً له الكتب الأدبية :

أنا فى البستان وحدى فى رياضٍ سندسيه
ليس لى فيه أنيس غير كتبٍ أدبيه

ومن تعبيراته النحوية قوله :

عسى عطفه للوصل يا واو صدغه علىَّ ، فإنى أعرف الواو تعطف

---

(١) روى الإمام البخارى فى باب قول النبى « الفتنة من قبل المشرق » – أن النبى قام إلى جنب المنبر فقال : الفتنة ههنا ! الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان أو قال : قرن الشمس » .

(٢) ابن العبد : هو طرفة الشاعر الجاهلى المشهور . والمتلمس شاعر جاهلى مات قبل الهجرة بخمسين سنة .

(٣) أحد أجواد العرب المشهورين وفيه يقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقفها عرابة باليمين

وقوله :

جعلتكم خبرى فى الحب مبتدئاً وكل معرفة لى فى الهوى نكره

ويكره أن يكون مخالفاً للنحاة ، فإن ظهر فى شعره شيء من ذلك أوّله بما يتفق هو والنحو :

بروحى من أسميها (بستّى) فتنظر لى النحاةُ بعين مَقْتِ
يرونَ بأننى قد قلت لحناً وكيف وإننى لزهيرُ وقتى
ولكن غادةٌ ملكت جهاتى فلا لحنٌ إذا ما قلت : ستى

وبعد : فإن حفاوة السلاطين بالعلماء ، وافتتاح المدارس ودور العلم ، وتربية البهاء فى قوص وهى مركز من مراكز الثقافة فى ذلك العصر ، وميله الفطرى إلى القراءة ، وآماله العريضة فى الوصول إلى أعلى المناصب — كل ذلك كان بعض ما جعله يهتم بالثقافة على اختلاف مظاهرها ، وتعدد أنواعها وكان لذلك أثره فى تعابيره على النحو الذى رأيت .

ز — اتصاله بأعيان عصره :

(١) جمال الدين بن مطروح [١] :

لم تتضح صلات البهاء بأعيان عصره إلا بعد انتقاله إلى قوص ، وتعلمه بها ، وتخرجه فى مدارسها ، ويبدو أن أول من اتصل به من الأعيان هو الشاعر جمال الدين بن مطروح ، وقد كان ابن مطروح من أهل صعيد مصر ، ونشأ هناك ، وأقام بقوص مدة[٢] وتأكدت الصلة بينه وبين البهاء حتى كانا كالأخوين[٣] :

(٢) المكرم مجد الدين بن إسماعيل اللمطى :

وفى قوص كذلك يتصل البهاء بمجد الدين بن إسماعيل اللمطى حاكم قوص

---

(١) « ابن مطروح » : (٥٩٢ — ٦٤٩) هـ .
(٢) « وفيات الأعيان » : ٥/٣٠٢ .
(٣) « وفيات الأعيان » : ٥/٣٠٦ .

وهو يمنى كالبهاء :

تعزى لقوم سادة يمنية أعلى الورى قدراً ، وأزكى محتداً

ولعل اجتماعهما فى النسب اليمنى قرب ما بينهما ، وكان سبباً فى التواصل ، وقد ولى اللمطى هذا قوصاً فى ذى القعدة سنة ٦٠٦ هـ ، وفى ديوان البهاء قصائد ست مدح بها هذا الحاكم ، وهذه القصائد تصور تطور العلاقات بينهما :

فالقصيدة الأولى أرخت فى ديوانه سنة ٦٠٧ هـ ، وذكر أنها أولى مدائحه ، وفيها يهنئ اللمطى بولايته أعمال قوص ، وفيها يقول :

ورب قوافٍ قد طويتُ برودَها فلم أرضَ أن تغدو لغيرك ملبسا

أقمن حبيسات كحبسك من جنى على أنها لم تجنِ يوماً فتحبسا

فها هى كالوحشىّ من طولِ حبسها عساها ببرٍّ منك أن تتأنّسا

وهذه الأبيات صريحة فى أن هذه القصيدة أولى مدائح البهاء ، كما أنه فى البيت الأخير يرجو من الأمير بره وخيره ، كما يرجو أن يوالى بره ويتابعه فى البيت الذى يقول فيه :

وإن بدأ النُّعمى تلاها بمثلها فتزدادُ حُسناً كالقرينِ مجنّسا

* * *

وأكد البهاء صلته بمجد الدين اللمطى فتراه يهنئه بشهر الصوم سنة ٦٠٩ هـ :

وافاك شهر الصوم يا من قدرُه فينا كليلة قدره لن يجحدا

ويبين موقف الأمير منه فى البر والرعاية ، وذلك إذ يقول :

مولى بدا من غير مسألةٍ بما حاز الندا كرماً ، وعاد كما بدا

* * *

ثم تقع بين الشاعر والأمير جفوة ، فيرسل البهاء عتابه فى قصيدة طويلة ، نستنتج منها أن مجد الدين اللمطى ، قد وعد البهاء وعداً ، والبهاء يستنجز الوفاء به ، وأن الأمير اتخذ البهاء كاتباً ثم صرفه عن الكتابة ، وأن البهاء متألم لهذه الفرقة :

لنا عندكُم وعد فهلا وفيتم ؟ وقلتم لنا قولاً فهلاّ فعلتم

ومثلك لا يأسى على فقدِ كاتبٍ ولكنه يأسى عليك ويندم

ويرى البهاء أن الأمير قد مل صحبته ، فيأسى لذلك ويأسف ، ويرسل يهنئه بالعيد ، ويمزج ذلك بالحسرة على أيام قضاها فى خدمة الأمير ، ويستعطفه وذلك إذ يقول :

مولاى دعوة من أطلت جفاءه وعلى جفائك إنه لوصول
يدعوك مملوك يراك ملالته أنا ذلك المملوك والمملول

(٣) الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر :

وقد وزر ابن شكر للملك العادل (ت ٦١٥ هـ) .

وكانت خلع الخليفة ترد إلى العادل وأبنائه كما ترد إلى وزيره الصاحب ابن شكر ، هذا ، مما يدل على أنه بلغ مكانة عظيمة[١] حتى حصلت بينه وبين العادل منافرة أوجبت غضب العادل عليه ، وسفره إلى البرية ، فركب وجهاء القوم حتى لحقوه ، وقدموا به على العادل فرضى عنه ، ومن حينئذ انحطت منزلة ابن شكر ، وكان ذلك فى سنة ٦٠٦ هـ .

وقد تغير العادل على ابن شكر مرة أخرى سنة ٦٠٩ هـ ، فأقاله من الوزارة[٢] وأخرجه إلى آمد ، فلم يزل بها حتى مات العادل ، ولما ولى الكامل استدعى ابن شكر من آمد وأكرمه . . . واستوزره ست سنوات وانكف بصره وهو يباشر الوزارة حتى مات .

هذا هو الصاحب صفى الدين بن شكر ، وتلك منزلته فى التاريخ السياسى من دولة الأيوبيين ، وقد بلغت منزلته أوج عظمتها زمن العادل ، وأغرت هذه المكانة البهاء أن يرسل إليه بشعره مادحاً يستدر عطفه ، ويستميح فضله ، ويذكر له أن حرفة الأدب حالت بينه وبين تحقيق ما يرجوه من رغبات :

ومما دهانى حرفةٌ أدبيةٌ غدت دون إدراك المطالب خندقا
وإن شملتنى نظرةٌ صاحبيةٌ فلست أرى يوماً من الدهر مُملقا

---

(١) « السلوك » : ١٦٩/١ .
(٢) « السلوك » : ١٠١/١ .

ويظهر من هذه القصيدة أن ابن شكر كان مؤلفاً، وكانت له مشاركة فى فروع الثقافة التى سادت حينئذ :

وكم لك فينا من كتاب مصنف تركت به وجه الشريعة مُشرقا
عكفنا عليه نجتنى من فنونه فعلمتنا هذا الكلام المؤنقا

(٤) الملك العادل :

ويرقى البهاء فى صلاته بأعيان عصره إلى الملوك والسلاطين، بعد الأمراء والوزراء فيتصل بالملك العادل ويمدحه، ويأنس إليه، ويجد الأمن والطمأنينة عنده :

أمنتُ بلقياك الزمانَ وصرفه فغيرىَ من يَخشَى عليه اهتضامه

(٥) الملك الكامل :

وهو ابن الملك العادل، وفى عهده انتصر على الفرنجة فى معركة دمياط وكان هذا الانتصار فرحة هزت المشاعر ، وفتقت قرائح الشعراء ، وأرسل البهاء إلى الكامل مدحة فى مطلعها :

بك اهتزَّ عطفُ الدين فى حُلَل النصر ورَدَّت على أعقابها ملةُ الكفر

(٦) الملك المسعود يوسف بن الكامل :

وكان الملك المسعود كذلك ممن اتصل بهم البهاء، وقد صرح البهاء بآماله وأطماعه فى قصيدة أرسلها للمسعود من قوص، وأنه يود أن يكون شاعر القصر، وبيّن أن له من المواهب ما ينشر بها ذكر الملك المسعود بين الملوك .

فيا صاحبى هب لى بحقك وقفة يكون بها عندى لك الحمد والأجرُ
لدى ملك رحب الخليقة قاهر فمجلسُه الدُّنيا ، وخادمه الدهرُ
سأذكى له بين الملوك مجامراً فمن ذكره ندٌّ ، ومن فكرى الجمر

ويستجيب الملك المسعود لرغبة البهاء، ويحقق آماله ، فيقربه منه ؛ حتى

يحويهما إيوان ، ويعظم هذا القرب فى عينى البهاء فلا يدرى أفى يقظة هو أم فى منام :

وقد قرب الله المسافة بيننا فها أنا يحوينى وإياه إيوان
أشك وقد عاينته فى قدومه وأمسح عن عينى ، هل أنا وسنان ؟

(٧) الملك الصالح نجم الدين أيوب :

ويبتسم الزمن للبهاء زهير ، وتقبل الدنيا عليه ، فيرغب الملك الصالح نجم الدين أيوب فى أن تتوثق صلة البهاء به ، فلا يسع البهاء إلا أن يستجيب لرغبة الصالح أيوب ، ويجد فى الاتصال به غنى عمن سواه ، كما يجد الطمأنينة والاستقرار .

ووجه الملك الصالح البهاء إلى البلاد الشرقية حتى إذا ملك الصالح مدينة دمشق عاد البهاء إليها كاتباً للملك الصالح ، وظل كذلك حتى طمع الملك عماد الدين إسماعيل فى ابن أخيه الصالح أيوب ، واستمال عماد الدين عسكر الصالح ، ففارقوه ، وبقى الصالح نجم الدين فى دون المائة من أمرائه وأجناده ، وثبت معه البهاء زهير ، ونزل الصالح نجم الدين بنابلس ، فسار إليه الملك الناصر داود بعساكره فقبض عليه ، وأركبه على بغلة فى إهانة ، وأقام البهاء فى نابلس على الوفاء لصاحبه الملك الصالح حتى تم الصلح بينه وبين الناصر داود على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر ، وعاد البهاء إلى خدمة الملك الصالح سنة ٦٣٧ هـ ، وأقام عنده فى أعلى منزلة ، واختص به ، وولاه ديوان الإنشاء : يقرأ الكتب الواردة على السلطان ، ويكتب أجوبتها ، ويصرف المراسيم .

وندبه الملك الصالح نجم الدين إلى مهام الأمور : بعثه إلى الناصر صاحب حلب يطلب تسليم الصالح عماد الدين إسماعيل إليه ، ولكن الناصر لم يشأ تسليمه ؛ لأنه رأى فى ذلك ، إخفاراً للذمة ، وليس من المروءة إذا استجار إنسان بإنسان أن يخفر ذمته ويسلمه إلى عدوه ، فرجع البهاء إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين ، وقد عظم عليه جواب الناصر إليه .

وبقى البهاء فى خدمة الملك الصالح حتى سنة ٨٤٧ هـ ، وهى السنة التى مات فيها الصالح أيوب ، وقبيل موته صرف البهاء من خدمته ، وغضب عليه .

ويقول المؤرخون فى سبب تغير الملك الصالح على البهاء : « إن البهاء كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « أنت تعرف قلة عقل ابن عمى ، وأنه يحب من يصله ويعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسير الكتاب إلى البهاء زهير ليغيره ، والبهاء زهير مشغول ، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فأمره بختمه فختمه ، وجهزه إلى الناصر على يد نجاب ولم يتأمله ، فسافر به النجاب لوقته ، واستبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيراً بعد ذلك وقال له : ما وقفت على ما كتبته بخطى بين الأسطر ؟ قال البهاء : ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه : وأخبره أنه سير الكتاب مع النجاب ، فقامت قيامة السلطان وسيروا فى طلب النجاب فلم يدركوه ، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك ، فعظم عليه وتألم له .

ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب المؤلم ويقول له فيه : « والله ما بى ما يصدر منك فى حقى ، وإنما بى إطلاع كتابك على مثل هذا » ، فعز ذلك على الملك الصالح ، وغضب على بهاء الدين زهير ، وبهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك إلى نفسه ، ولم ينسبه لكاتب الكتاب وهو فخر الدين ابن لقمان .

وكان الملك الصالح كثير التخيل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة .

(٨) الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ :

ولما مات السلطان الصالح أيوب أخفت زوجته شجرة الدر خبر موته خوفاً من الفرنج ، واتفقت مع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ — وكان أقرب الناس

إلى السلطان — على أن يقوم بتدبير المملكة إلى أن يقدم تورانشاه ، فاستدعى الأمير فخر الدين بهاء الدين زهيراً من القاهرة إلى المنصورة ليحلف مع أكابر الدولة وأجنادها للسلطان ولابنه تورانشاه أن يكون سلطاناً من بعده فحلفوا جميعاً ظناً منهم أن السلطان حي .

وأعاد الأمير فخر الدين البهاء زهيراً إلى منصبه ، ثم تطورت الأمور ، وأعرض تورانشاه عن مماليك أبيه ، واطرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد ، وقدم الأراذل ، وأبعد البهاء زهيراً عن عمله مع من أبعد .

(٩) الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين :

مضى البهاء إلى بلاد الشام يمدح الناصر يوسف بن العزيز وقد ملك دمشق سنة ٦٤٨ هـ ، ويعرض البهاء على الناصر بضاعته ، ويبثه شكواه ، ويفصح عن آماله ، ويرجو عنده صلاح حاله ، ويغريه أن يجعله صاحب إمارة :

فما يوسف يقرى بناب مسنة ولا العرق مفصودٌ ، ولا الشاةُ تُذْبَحُ
وبعضُ عطاياه المدائن والقرى فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبح

ومع هذا لم تتحقق آمال البهاء ، ولم تنجل خطوبه ، ولم ينجح فى بغيته ، فأخذ يشكو إلى يوسف بن عبد العزيز ما يلقاه من البؤس والفاقة ، ويطلب منه أن يعينه على أحداث الزمان وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

طريقتُك المثلى أجلُّ وأشرفُ وسيرتُك الحُسنى أبرُّ وأرأفُ

(١٠) الملك المنصور على بن الملك العزيز بن الملك المعز أيبك الصالحى :

وهو آخر من اتصل به من الملوك ، وفى ديوانه مدحة له (مؤرخةٌ بـ ٦٦٥هـ) وفيها يؤكد إخلاصه للمنصور على ، ويرجو منه أن يوليه النعمة ، ويشد أزره :

لعل الذى فى أول العمر فاتنى تعوضنيه أنت فى آخر العمر

ولم تحقق الأقدار ما تمنى البهاء ، فظل على بؤسه وفاقته إلى أن مات .

(١١) الصاحب كمال الدين بن العديم :

وقد كتب له البهاء أبياتاً يذكر فيها له أنه اختاره لتحقيق أمنية ، وأنه اصطفاه دون سواه . ذلك فى مقطوعته التى يقول فى أولها :

دعوتك لما أن بدتْ لى حاجةٌ وقلت : رئيسٌ مثلُه من تفضَّلا[١]

هذا وهناك غير من ذكرنا ــ أشخاص اتصل بهم البهاء ومدحهم ، ولم أر لهم ذكراً بين يدى من كتب التراجم[٢] ، ولعل أقدار هؤلاء لم تبلغ المنزلة التى يذكرهم بها التاريخ .

(ح) صفات البهاء زهير[٣] :

تلقى كتب التاريخ والتراجم ضوءاً على أخلاق البهاء زهير ، كما أن شعره مرآة تجلت فيها صفاته واضحة جلية .

وأول ما يطالعنا من ديوان البهاء زهير صفة الوفاء ، وكذلك تحدثنا كتب التاريخ عنه ، قالوا : لما طمع الصالح عماد الدين فى الملك الصالح نجم الدين ، وتفرق جيش نجم الدين عنه بقى الصالح فى دون المائة من أمرائه وأجناده ، وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه ، وتركه أيضاً بدر الدين قاضى سنجار ، وكان أخص أصحابه ، وصاروا كلهم إلى دمشق ، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح نجم الدين قائمة ، وثبت معه ثمانون من مماليكه ، وبعض الأمراء ، وثبت معه أيضاً كاتبه بهاء الدين زهير[٤] .

فثبات البهاء مع مخدومه وهو على تلك الحال من الضعف ، وتفرق الأجناد والأقارب والأهل عنه ــ دليل على ما كان يتمتع به البهاء من صفة الوفاء ، وكثيراً

---

(١) « خزانة الأدب » : ٦٤ والديوان : ١٧٤ .

(٢) من هؤلاء مثلا : ابن جلدك ، ونصير الدين أبو الفتح المطى . . . وهو غير مجد الدين المطى الذى سبق أن تحدثت عن صلته بالبهاء .

(٣) « السلوك » : ١/ ٢٨٨ .

(٤) « السلوك » : ١/ ٢٨٨ .

ما هتف فى شعره بهذه الصفة .

فهو الذى يقول :

تعال فعاهدنى على ما تريده فإنى ملىءٌ بالوفاء زعيم

ويحدثنا معاصره ابن خلكان عن أخلاقه فيقول :

« كنت أود لو اجتمعت به ، لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ورأيته فوق ما سمعته عنه : من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة السجايا ، وكان متمكناً من صاحبه "يقصد الملك الصالح نجم الدين أيوب" ، كبير القدر عنده . . . » ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا بالخير ، ونفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته ، وجميل سفارته ، فلاجرم أن كان ممدوحاً يثنى عليه صحبه ، ومن اتصل بهم ، ويمدحونه بشعرهم ، مدحه ابن الحلاوى بقصيدة طويلة كان من جملتها قوله :

تجيزها وتجيز المادحين بها فقل لنا : أزهيرٌ أنت أم هرمُ

وكتب إليه ابن مطروح يقول له :

أقول وقد تتابع منك برٌ وجود ، ما برحت لكل خير
ألا لا تذكروا هرماً بجودٍ فما هرمٌ بأجودَ من زهيرِ !

* * *

والوفاء الذى اتصف به البهاء زهير هو الذى جعله يحن إلى وطنه إذا ما فارقه ، فإذا كان بالصعيد حنّ إلى الحجاز :

أحنُ إلى عهد المحصّب من منى وعيشٍ به كانت ترِفُ ظلالُه

وإذا بعد عن الصعيد هتف به :

ويرتاحُ قلبى للصعيد وأهله وعيشٍ مضى لى عندكم ومقامِ

وإذا همّ بالرحيل عن مصر نازعته نفسه :

أألرحلُ عن مصر وطيب نعيمها وأى مكانٍ بعدها لى شائقُ ؟

فإن كان لا بد من الرحيل فالدعاء الدعاء يا أحباب ، وإلى اللقاء إلى اللقاء :

أحبابنا أزف الرحيلُ (م) فزوِّدونا بالدعاء
أحبابنا هل بعد هذا (م) اليوم يوم للقاء ؟ !

وهو حيناً يجزى الغادرين بالوفاء :

أنا الوفىّ لأحبابى ، وإن غدروا أنا المقيم على عهدى ، وإن رحلوا
أنا المحب الذى ما الغدر من شيمى هيهات خلقى عنه لست أنتقلُ

وأحياناً تبلغ به ثورته على الخائنين فيرى خيانة من يخون :

خل من خلاك يا قلب (م) ومن خانك خنه
لا إذا تصن بالله ودا لخئون لم يصنه
وكما ساملك سمه وكما دانك دنه

مع أنه الذى يقول :

فلو خان طرفى ما حوته جفونه ولو خان قلبى ما حوته ضلوعى

أو يقول :

مذ كنت لم تكن الخيانة (م) فى المحبة من خلاقى

وهو يرعى التقاليد ، ويكره الإثقال على الناس :

وللناس عادات وقد ألفوا بها لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيل بينهم وبغيض

ومن هنا كره الثقيل من الناس ، يلقى فيه ملك الموت ، ويراه خليقاً بأن ينفر عنه أصحابه ، ويبلغ بغض البهاء للثقيل حدًّا لو ذكر معه اسمه على الماء ما ساغ شرابه .

وثقيل كأنما ملك الموت قربه
لو ذكر اسمه على الماء (م) ما ساغ شربه

* * *

ويصف البهاء نفسه بالذكاء ، فهو يفهم بالإشارة الدالة ، واللمحة الخاطفة :

أشر لى بوصفٍ واحدٍ من صفاته   تكن مثل من سمّى ، وكنى ، ولقّبا

* * *

وهو رضى النفس فى حالى شبابه ومشيبه :

سلام على عهد الشبيبة والصّبا   وأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحبا

ويا راحلاً عنى رحلت مكرماً   ويا نازلا عندى نزلت مُقَرَّباً

* * *

وهو ذو همة — وإن كان فقيراً :

واقنع بكسرة خبز   وهمة كسرويه

وهو من أجل همته لا يرضى الذلة والمهانة :

استغن عن زيد ، وعن عمرو ، وعن   فارقْ بلاداً أنت فيها تمتهنْ

* * *

ثم هو ذو مروءة ، ويرى المروءة وسيلة إلى رحابة العيش ، وسعة الحياة :

وما ضاقت الدنيا على ذى مروءة   ولا هو مسدود عليه رحابها

فقد بشّرتنى بالسعادة همّتى   وجاء من العلياء نحوى كتابها

* * *

وهو كريم :

لى منزل إن زرته   لم تلق إلا كرمك

وإن تسلْ عنى به   لم تلقَ إلا خدَمك

وهو صادق يفعل ما يقول ، حَيِىٌّ يمنعه الحياء أن يخلف وعداً :

إذا قلتُ قولا كنتُ للقول فاعلاً   وكان حيائى كافلى وضمينى

وهو فى حاجات الناس ، يعينهم فى غاية من المروءة والنبل ، وينيلهم فوق الذى يرجون ، ويلقاهم فى بشاشة ولطف وترحيب :

ويا ربَّ داعٍ قد دعانى لحاجةٍ   فعلتُ له فوقَ الذى كان أمّلا

سبقتُ صداه باهتمامى لكل ما   أرادَ ، ولم أحوجه أن يتمهّلا

وأوسعتُه لما أتانى بشاشةً ولطفاً ، وترحيباً ، وخلقاً ، ومنزلا

بسطت له وجهاً حيياً ومنطقاً وفيّاً ، ومعروفاً هنيئاً مُعَجّلا

وراحَ يرانى منعماً متفضّلاً ورحت أراه المنعم المتفضلا

ط — أسرة البهاء زهير :

فى بعض نسخ الديوان المخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ٢٠٥١ أدب) وصف لوالد البهاء زهير بأنه (العارف قدس الله روحه) ، وفى هذه العبارة ما يشير إلى أن والد البهاء كان على صلة بالله ، وأنه يسلك فى دنياه ما يسلكه العارفون المتصوفون من أهل الهدى والصلاح . . .

وفى قصيدة استعطف بها أحد ممدوحيه يقول البهاء :

ولولا أمورٌ ليس يحسنُ ذكرُها لكنتُ عن الشكوى أصدّ وأصدفُ

ولكنّ أطفالاً صغاراً ونسوةً ولا أحدٌ غيرى بهم يتلطفُ

سرورىَ أن يبدو عليهم تنعمٌ وحزنىَ أن يبدو عليهم تقشفُ

وفى هذه الأبيات ما يشير إلى أنه يرعى أطفالاً ، ويعول نسوة ، وقد كان يستكتب شعره ولداً له يسمى صلاح الدين ، وذلك ما تكشف عنه عبارة وردت فى ديوانه تقول :

كتب « البهاء زهير » عند موته بالديار المصرية على يد ولده صلاح الدين إلى محمد بن الحكم عماد الدين المدرينى :

ما قلتَ أنتَ ، ولا سمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا

إن الكرام إذا صحبتهمُ ستروا القبيح ، وأظهروا الحسنا

هذا مبلغ العلم بأسرة البهاء : أبيه ، وأولاده ، وأهله ، وقد كان بهم باراً ، وعليهم حريصاً . . .

ى — وفاته :

فى السنة التى سقطت فيها بغداد على يد التتار سنة ست وخمسين وستمائة هجرية ، حدث وباء عظيم بالديار المصرية . ويجتمع على البهاء الوباء والغلاء والفاقة وكبر السن فلا يقوى على المقاومة ، ويدركه القضاء المحتوم ، فيسلم أنفاسه الأخيرة قبيل مغرب يوم الأحد رابع أيام شهر ذى القعدة ، ودفن من الغد فى القرافة الصغرى فى الجهة القبلية بالقرب من قبة الإمام الشافعى (رضى الله عنهم أجمعين) . . .

الفصل الثالث

جوانب البهاء زهير

١ - البهاء زهير الكاتب

يذكر المؤرخون في ترجمة البهاء زهير أنه « من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظماً ، ونثراً ، وخطاً »[١] ، وحين تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر ، ولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيراً[٢] ، وإذن كان البهاء كاتباً إلى جانب شهرته بالشعر ، ولكن التاريخ الأدبي والسياسي معاً لم يحفظ لنا من آثار البهاء في النثر إلا كتابه الذي يرد فيه على لويس التاسع ملك فرنسا حين عزم على التوجه إلى أرض مصر وأخذها ، فسار السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق وهو في محفة ، ونزل بأشموم طناح في محرم سنة ٦٤٧ هـ ، وأعد العدة للدفاع عن دمياط ، وفي أواخر صفر وردت جيوش العدو ، وبعث ملكهم إلى السلطان بكتاب يدل فيه بقوته وعدد جيشه[٣] .

فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض ، بكى واسترجع ، فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب[٤] :

وهو الأثر الأدبي الوحيد الذي حفظه التاريخ - على ما أعلم - من نثر البهاء زهير ، وهو على كل حال يعطينا صورة عما كان عليه نثر البهاء فهو يميل إلى الإيجاز والوضوح ، وتظهر فيه المراوحة بين الازدواج والسجع ،

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٢٠/٨١ .

(٢) « صبح الأعشى » و « حسن المحاضرة » .

(٣) اطلبه في باب المنتخبات .

(٤) اطلبه في باب المنتخبات .

مع غلبة السجع عليه . والسجع فيه غير متساوى الفقرات . كما يبدو فى هذا الكتاب الاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد بأقوال الحكماء ، وتوفيقه فى هذا وذلك ، والكتاب بعد ذلك يلقى ضوءاً على ثقافة البهاء .

وقد كان البهاء مقيداً فى رده على كتاب لويس التاسع بما أثار لويس من نقاط . ومن هذا جاءت أفكار جوابه ضحلة محصورة فيما عرض لويس من ضروب التحذير . . . فإن حذر لويس الصالح نجم الدين كثرة العساكر التى تملأ السهل والجبل ، وأنهم مرسلون بأسياف القضا . . . قال البهاء : « نحن أرباب السيوف . . . » وإن ذكر لويس ما كان عليه أهل الأندلس حينئذ من الطاعة والضعف . . . ذكره البهاء بما كان عليه المسلمون الأوائل من القوة والفتح والتنكيل بالأعداء . . .

وكأن البهاء كشف له عن الغيب حين حذر لويس عاقبة أمره الذى صار إليه . وذلك إذ خاطبه البهاء بقوله : « وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك » . . . وقد كان . . . حيث أخذ لويس أسيراً سجيناً فى دار ابن لقمان بالمنصورة .

هذا ويذكر المؤرخون أنه لما فهم الفرنج موت السلطان الصالح نجم الدين أيوب — وقد أخفت شجرة الدر خبر موته أولا — نزلوا على فارسكور فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من معسكر المصريين كتاب فيه حض الناس على الجهاد . . . أوله :

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

قال المقريزى : « وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمة »[1] ويرجح ابن واصل أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير[2] .

ويبين المقريزى أثر هذا الخطاب حيث حصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات والضجيج ما لا يوصف » .

---

(١) « السلوك » : ١ / ٣٤٦ .

(٢) « مفرج الكروب » ص ٣٦٤ ب .

ولا يستطيع الباحث أن يعتمد على هذا الأثر دليلا على قوة الخطاب وبراعة البهاء فيه ، فربما كان تأثير الناس راجعاً إلى ما فيه من المواعظ كما يقول المقريزى ، أو إلى ما أثار عندهم من العواطف الدينية والوطنية . وتوقعهم استيلاء الفرنج على الديار ، وما يستتبع ذلك من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ومهما يكن من أمر فإن شهرة البهاء شاعراً أعظم من شهرته كاتباً ، وحسبنا أنه كان فى الشعر صاحب مذهب يعرف به ويدل عليه ، وهو ما أنا بسبيلى إليه فيما يلى من حديث . . .

٢ ـ البهاء زهير الشاعر

١ ـ ديوانه :

يقرر ابن خلكان فى وفياته أن البهاء قد أجازه رواية ديوانه الذى كان كثير الوجود بأيدى الناس فى زمانه .

ويذكر المستشرق إدوارد هنرى بالمر أن الذى جمع ديوان بهاء الدين زهير بعد وفاته هو شرف الدين ، وأن ذلك مذكور فى نسخة حسنة موجودة بمكتبة أكسفورد ، وليس ببعيد ذلك فقد كان شرف الدين هذا ـ وهو المعروف بابن الحلاوى الموصلى ـ ذا صلة بالبهاء زهير[١] .

وفى دار الكتب المصرية ثلاث نسخ خطية إحداها برقم ٢٠٥١ أدب والثانية برقم ٢٨ م تاريخ كتبت سنة ١٠٠٢ هـ ، والثالثة تحت رقم ٥٥٧ بخط حسين بن محمد فرغ من كتابتها فى ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ .

أما طبعات الديوان فكثيرة ، ذكرها سركيس فى معجمه ، ويبين أنه طبع

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٢ / ٨٣ .

بمصر سنة ١٢٧٧ هـ ، وسنة ١٢٨٧ هـ ، وسنة ١٢٩٧ هـ ، وطبع بمطبعة شرف ، سنة ١٣٠٠هـ ، ومطبعة عبد الرازق سنة ١٣٠٥هـ ، والمطبعة الميمنية سنة ١٣١١هـ ، ومطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٢ هـ ، وطبع فى بيروت ؛ طبعه صاحب المكتبة العمومية سليم إبراهيم صادر ، ولم يذكر لها تاريخ طبع .

كما طبع ديوان البهاء زهير بكمبردج سنة ١٨٧٦ م ، فى مجلدين طبعه إدوارد هنرى بالمر مدرس اللغة العربية بمدرسة كمبردج ، ويحوى المجلد الأول منهما مقدمة تبين منزلة الشعر عند العرب ، وترجمة للبهاء زهير ، ويحوى المجلد الثانى ترجمة للديوان بالإنجليزية شعراً .

كذلك طبع الديوان بمصر بالمطبعة المنيرية ولم يذكر لها تاريخ طبع كذلك ، وقد صدرت هذه الطبعة بترجمة قصيرة لصاحب الديوان .

وديوان البهاء زهير فى حاجة بعد كل هذه الجهود إلى إخراج جديد يحقق فيه شعره ، ويقابل بين مختلف نسخه مخطوطة ، ومطبوعة ، وفاء لحق الشاعر العربى ، الذى كثيراً ما هتف فى شعره بالوفاء . . .

ب ـ طريقته :

(١) لغته : انتقل البهاء زهير العربى من الحجاز إلى قوص بصعيد مصر ، ولا شك فى أن لغة الحجاز فى عربيتها كانت أسلم من اللغة فى قوص ، ثم فى القاهرة . . .

جاء البهاء إلى قوص فطرق سمعه لغة الحديث العادية الجارية : لغة لا هى بالعربية السليمة ، ولا هى بالغريبة عن العربية ، بل تمت لها بصلة كبيرة . . . ومثل تلك اللغة ــ على الوافد العربى بخاصة ــ تثير تنبهاً منه إليها ، لما فيها من الغرابة ، وتغرى باستعمالها بما تحوى من القرابة . . .

ثم كان أن اندمج البهاء العربى القوصى الصعيدى فى الشعب المصرى ، وخالط طبقاته المختلفة : خالط دهماءه ، وعاشر خاصته ، فجاء شعره عربياً يمتّ إلى عروبته ، وواضحاً يفهمه أهل عصره من عامة الناس والأتراك . . .

واستطاع بذلك التوفيق فى إنشاء أشعار يطرب لها العامة والخاصة على السواء . . .

ورأى البهاء المصريين وما طبعوا عليه من خفة الروح ، وتلك صفة يشهد بها كل من زار مصر من الوافدين الذين عاشوا فيها مدة ، وخالطوا أهلها ، ولا تزال هذه الشهادة جارية على ألسنة هؤلاء الزائرين حتى هذا الزمان .

كان ذلك كله بعض ما دفع البهاء زهيراً إلى أن تكون لغة الشعر عنده مصرية تعبر عن الحياة العادية فى روحها ، وبساطتها ، ومرونتها ، عربية فى جريها على قواعد النحو والإعراب . . . وجاءت أشعاره تحكى عذوبة النيل ، ورقة النسيم البليل ، فى خيال هادئ ، ولفظ عذب قريب ، ومعنى لطيف مألوف .

حـ – البديع فى شعره :

شغف البهاء بالبديع : من جناس ، وطباق ، وتورية ، ومراعاة للنظير ، وتضمين ، واقتباس ، وحسن تعليل ، وإلغاز إلى غير ذلك من فنون المحسنات ، ويصرح البهاء أنه ولوع بالبديع ، شديد النزوع إليه ، وأن مقياس جودة القصيدة بما فيها من زخرف القول :

وما ضاع شعرى فيكمُ حين قلته بلى وأبيكم ضاع فهو يضوع
أحبّ البديعَ الحسنَ معنى وصورةً وشعرى فى ذاك البديع بديع

ويقول :

وفضحتُ أزهارَ الريا ض بحسن أزهار البديع

والجناس أكثر ألوان البديع دوراناً فى شعر البهاء ، وقد بلغ من احتفاله به أن قال :

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها فتزداد حسناً كالقريض مُجَنَّسا

وقال :

وأعجبنى التجنيسُ بينى وبينها فلما تبدّى أشنبا رحتُ أشيبَا

وهو من أجل التجنيس — كثيراً ما يورد الكلمات الآتية مقروناً بعضها إلى بعض : يزهو ويزهر ، يشكو ويشكر ، زاه وزاهر ، شائك وشاكر ، الليث والغيث ، غاياته وغاياته ، سفراته وشفراته ، الدقيق والرقيق ، أوفى وأوفر ، معذور ومعذول ، مأمول ومأمون ، مملوك ومملول .

ومن حسن التعليل قوله : (وفيه أيضاً تورية) .

كفى الله دمياط المكاره ، إنها   لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنه   يحل محلّ الريق من ذلك الثغر

وقوله (وفيه أيضاً اقتباس) :

وما فاض ماء النيل إلا بمدمعى   (لقد مرج البحرين يلتقيان)

وقوله (وقد جمع فيه بين الاكتفاء والمقابلة) :

فلانةُ من تيهها تغصُّ بها مقلتى
وقد زعمت أنها وليستْ بتلك التى
فلا وجهَ إن أقبلتْ ولا ردْفَ إن ولّت

ومن الجمع بين التورية والطباق قوله :

فتنتُ به حلواً مليحاً وإنه   لأعجبُ شىء : كيف يحلو ويملح ؟

ومن التورية والاقتباس قوله :

أملى فيك دونه سيفُ لحظ   ذاك مستقبلٌ ، وهذاك ماضى
هذه قصتى ، وهذا حديثى   ولك الأمر : فاقض ما أنتَ قاضى

وقال ملغزا فى اسم مدينة « يافا » :

بعيشك خبرنى عن اسم مدينة   يكون رباعيّاً إذا ما كتبته
على أنه حرفان حين تقوله   ومعناه حرفٌ واحدٌ إن قلبته

* * *

د ـ معانيه الطريفة :

وللبهاء زهير معان طريفة يحيل بها المطروق من المعانى إلى نوع من الجدة والابتكار ، من ذلك قوله فى الوشاة :

إنى لأشكر للوشاة يداً عندى يقل لمثلها الشكرُ
قالوا فأغرونا بقولهمُ حتى تأكد بيننا الأمرُ

وقوله يخاطب رسول حبيبه :

ودعنى أفزْ من مقلتيكَ بنظرةٍ فعهدهما ممن أحبّ قريبُ

وقوله :

قلبي لديكَ فكيفَ أنـ ـتَ على البعاد ، وكيفَ قلبي

وقوله :

هم علموه فصارَ يهجرُه ربّ خذ الحق من مُعَلّمه

وقوله :

من مثلُ قلبيَ أو من مثل ساكنه اللهُ يحفظُ قلبي والّذى فيه

هـ ـ وحدة قصائده :

وقصائد البهاء متلاحمة النسج ، مترابطة الأجزاء ، يتصل لاحقها بسابقها ، يصوغ القصيدة أو المقطوعة فى موضوع ما : فيتناول معانى هذا الموضوع ، معنى بعد آخر فى اتصال من غير تنقل أو استطراد يشعر بالانفصال ، ومن أجل ذلك جاءت قصائده قصة متصلة الأجزاء فى الموضوع الذى يتحدث فيه ،

وقد ختم بعض قصائده بقوله :

هذه قصتى ، وهذا حديثى ولك الأمر فاقض ما أنت قاضى

وقوله :

إليك صلاحَ الدين أنهيتُ قصتى ورأيكَ يا مولاى أعلى وأشرَفُ

وفى ذلك ما يدل على اتجاهه فى وحدة القصيدة :

وحسن تخلصه فى قصائد المديح من النسيب إلى المدح يقرب مدائحه من هذا الاتجاه .

و ـ أوزانه :

استقرأت شعر البهاء فوجدت مدائحه من بحر الطويل أو الكامل على حين نظم قصائده ومقطوعاته الأخرى من البحور الخفيفة فى الوزن غالباً ، ولعل جنوح البهاء نحو السهولة هو الذى جعله يميل إلى هذه الأوزان الخفيفة ، وقد جاء شعره صالحاً للغناء ، والتوقيع به على الصاجات بروحه الخفيفة ، وقافيته المرقصة ، ونغمته المطربة ، وأوزانه الموسيقية ، وإنك لترى البهاء يسجل ذلك حين يقول :

كلامى غنىٌّ عن لحون تزينه له معبدٌ من نفسه ومخارق
تغنى به الندمانُ وهو فكاهةٌ ويورده الصوفىُّ وهو رقائق

وقد نظم فى « الدوبيت[1] » كقوله فى مجزوئه :

يا من لعبت به شمولُ ما ألطف هذه الشمــــائل
نشوانُ يهزّه دلالُ كالغصن مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلامُ ، لكن قد حمّل طرفه رسائل
ما أطيب وقتنا ، وأهنا والعاذلُ غائبٌ وغافل

ز ـ أغراض شعره :

عالج البهاء زهير فنون الشعر ، فمدح ، وهجا ، وفخر ، ورثا ، وشكا ، وتغزل ، وعاتب ، ووصف فى شعره الخمر ، والطبيعة ، وليالى الأنس ، ومجالس اللهو والمجون . . .

---

(١) الدوبيت : وزن من أوزان الشعر الفارسى ، نقل إلى الشعر العربى على يد الشعراء المولدين والمحدثين ووزنه فى كل شطرة :

* فعلن متفاعلن فعولن فعلن *

١ ــ الغزل :

وهو الفن الذى غلب فى شعر البهاء على غيره من الفنون ، وقد ملأ ديوانه به ، وأكثر من قوله فيه ؛ حتى اشتهر ذلك عنه وهو يرى أن التغزل داعية إلى الشعر :

بعد الحبيب هجرت الشعر أجمعه فلا غزال بلهينى ولا غزلى

والبهاء حين يتغزل بالمرأة ، ويتودد إليها يصف محاسنها وصفاً مادّيّاً يعيد إلينا ذلك الوصف التقليدى القديم : فالمرأة غزال ، وقدها غصن بان ، ولحاظها سهام ، وعيونها نرجس ، وريقها خمر ، ووجهها بدر . . . إلخ .

والطابع الذى يمتاز به غزل البهاء تحدثه عن الأحوال التى تجرى بين العاشقين : من تشوق إلى اللقاء ، وسرور بالمواتاة ، وحيرة عند الهجران ، وغيرة عنيفة على المحبوب ، وتودد للاسترضاء ، وبكاء عند الوداع :

جاءت تودّعنى ، والدمعُ يغلبها يوم الرحيل وحادى البين منصلت

وقفت أبكى ، وراحت وهى باكية تسير عنى قليــلاً ثم تلتفت

وأرق عند الفراق :

يا من لعين أرقت أوحشَها من عشقتْ

مذ فارقت أحبابها لها جفونٌ ما التقتْ

يعبر عن مختلف العواطف التى تجرى بين المحبين ، وأحوالهم من الهجر واللقاء ، واللين والصدود ، والمواتاة والتنويل ، ويصوغ ذلك كله بروح مصرية خالصة ، وطابع مصرى خفيف الروح ، كما قال :

لطفت فى وصل الهوى كلماتى أين أهل القلوب والأشواق ؟

شنّف السامعين درّ كلامى وتحلّت أجيادُهم أطواقى

والمرأة عند البهاء زهير ستّه :

بروحى من أسميها بستى فتنظرُ لى النحاةُ بعين مقتِ

يرون بأننى قد قلتُ لحناً وكيف وإننى لزهيرُ وقتى

ولكن غادةً ملكت جهاتى فلا لحنٌ إذا ما قلت (ستى)

وهى روحه وحياته :

أنت روحى ، وقد تملكت روحى وحياتى وقد سلبت حياتى

وحبيبته ، وسيدته ومولاته :

فيا مولاى ، قلْ لى أى ذنبٍ جنيتُ لعلَّنى منه أتوبُ

* * *

أمولاى ، إنى فى هواك معذَّبٌ وحتام أبقى فى العذاب وأمكث ؟

وهو عبدها :

تقصر الألسنُ عن وصفها لو بالغت واستغرقت جهدها

إنَّ ملوكا تملكت مهجتى لا تدعنى إلا (يا عبدها)

وهو يكرر هذا المعنى ، واستخراجه من ديوانه لا يحتاج إلى عناء .

* * *

وله مذهب فى الغرام جعله فى الألفة ، والوفاء والعفة ، والغيرة ، والتجمل بمكارم الأخلاق ، وقد ذكره جملة واحدة فى قصيدته التى يقول فيها :

مذهبى فى الغرام مذهب حق ولقد قمت فيه بالبينات

وإن كان يذكره بالتفصيل فى مواضع مختلفات من قصائده التى يتودد فيها إلى النساء ، ويشبب بهن أو يتغزل :

وهو لا يذل إلا للحب :

تذللت حتى رقَّ لى قلبُ حاسدى وعاد عذولى فى الهوى وهو شافع

فلا تنكروا منى خضوعاً عهدتم فما أنا فى شىء سوى الحبِّ خاضعُ

* * *

وفى شعر البهاء كثير من ذكر الحسود والعاذل والواشى ، والرقيب ، وهم الذين ذكرهم جماعة فى قوله :

حبيبى فيك أعدائى ضروب حسود ، عاذل ، واش ، رقيب

وهو حيناً لا يبالى بالعواذل والرقباء كأن يقول :

أنا فيها أنا فيه وعذولى يتعتّب
أنا لا أصغى لما قا ل فيرضى : أو فيغضب

أو يقول :

أنا لا أبالى بالرقـ ـيب ولا بمنظره القبيح
غمز الحواجب بيننا أحلى من القول الصريح

وحيناً يهجو الرقيب ، ويصفه بأشنع الصفات :

ورقيب عدمتُه من رقيب أسود الوجه . والقفا والصفات
هو كالليل فى الظلام وعندى هو كالصبح قاطع اللذات

أما الرسول الذى يصله بالحبيب فهو بمنزلة الحبيب من الإعزاز والتقدير :

لقد أتانى من الحبيب حبيبٌ ورسولُ الحبيب عندى حبيبُ

فالرسول يجىء ببشرى اللقاء :

جاء الرسولُ ببشرى منها بميعاد الزياره

ويتخذه وسيلة إلى الاستعطاف :

فيا رسولى ، تضرع فى السؤال له عساك تعطفُه نحوى وتثنيه

* * *

وقد تردد البهاء بين البيض والسمر ، فهو يميل مرة إلى السمر ، وينفر عن البيض ؛ لأنه لا يشتهى لون المشيب :

لأن السمرَ فى لون اللّمى والبيضَ فى لون البهـــق

وأحياناً يغرم بالبيض ؛ لأن :

الحقّ أبيض أبلجُ والحق أولى ما اتّبع

كما وجد الجمال فى معتدلة القوام تارة :

فما طالتْ ، وما قصُرَتْ ، ولكن ... بكملة يضيقُ بها الإزار
قوامٌ بين ذلك باعتدال ... فلا طولٌ يعاب ، ولا اختصار

وفى الطويلة تارة أخرى :

وما عابها القدّ الطويل ، وإنه ... لأولُ حسنٍ للمليحة بادى

والقصر مع الملاحة عنده غير معيب :

وما ضرها ألا تكون لويلةً ... إذا كان فيها كل ما يَطلُبُ الإلفُ

وقد عبّ من اللهو ما شاء حتى تعشّق عمياء :

قالوا : تعشقتَهــا عميا فقلت لهم ... : ما شانها ذاك فى عينى ولا قدحا
بل زادَ وجدىَ فيها أنها أبداً ... لا تبصِرُ الشيبَ فى خدّى إذا وضَحا

وقد هام بالحسن كما شاء له هواه فهو الذى يقول :

أذكرُ اليوم سُلَيمَى ... وغداً أذكرُ زينب

ويقول :

وإنى لمشغوفٌ بكل مليحة ... ويعجبنى الخصرُ المخصّرُ والرّدْف

ومدت له أسباب المجون والعبث حتى تغزل بالمذكر :

طلع العذارُ عليه حارس ... قمر تضيءُ به الحنادس
كالرمح مهزوز القوا ... م وكالقضيب اللدن مائس
ويروح يقظانَ الجفو ... ن تخالُه كالظبى ناعس

مع أنه قد عاب على من يحبّ الغلمان :

أيا معشرَ الأصحاب ، مالى أراكم ... على مذهبٍ والله غير حميد
فهل أنتمُ من قوم لوط بقيةٌ ... فما منكم من فعله برشيد
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قومُ لوطٍ منكمُ ببعيد

٢ — المديح :

للبهاء زهير زهاء ست وعشرين قصيدة فى المديح : منها اثنتان فى مدح الأمير علاء الدين جلدك ، وثلاث للأمير نصير الدين اللمطى ، وست لمجد الدين اللمطى ، وخمس للملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وواحدة لكل من الملك الكامل ناصر الدين ، والملك المسعود أبى المظفر ، والمنصور السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، والملك العادل أبى بكر بن أيوب ، والصاحب صفى الدين بن شكر ، أما القصائد الباقيات فلم يعيّن فى ديوانه الممدوحون فيها ، ويبدو أنهم فى مرتبة دون هؤلاء من السلاطين والأمراء .

وقصيدتاه فى مدح الأمير جلدك من أوائل شعره ، يعمد فى القصيدة الأولى إلى المدح نصاً من غير تقديم بغزل أو تشبيب ، إذ يقول :

لك الله من والٍ ولىّ مقرّب فكم لك من يوم أغرّ محجّب

وهى قصيدة مشحونة على هذا النحو من الجناس مثل :

يقصّر عن أمثاله كلّ قيصر ويغلبُ عن أمثاله كل أغلب

وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة اثنى عشر بيتاً . . . وهى قصيدة فى غاية السذاجة ، مدح البهاء زهير ابن جلدك بصفات هى بالنساء ألصق ، وهن بها أحق وأجدر :

هو الزهَر الغض الذى فى كمامه أو اللؤلؤ الرطب الذى لم يثقب

ولقد شبه الله الحور العين بأمثال اللؤلؤ المكنون ، فكيف يشبه ابن جلدك — الموصوف بالشجاعة من قبل — باللؤلؤ ، واللؤلؤ الرطب ؟ ثم فى قوله : « لم يثقب » ما يوحى بأن ابن جلدك أشبه بالعذراء . ثم قوله بعد ذلك :

خليلىّ عوجا بى على الندب جلدك أقضى لبانات الفؤاد المعذب

فتى ماجد طابت مواهب كفه فلا تذكرن لى بعده أم جندب

فما صلة جلدك بأم جندب ؟ وكيف يعوج خليلاه بالندب جلدك مثل ما عاج امرؤ القيس وصاحباه بأم جندب ؟

أما القصيدة الأخرى فى (ابن جلدك) هذا فقد بلغت العشرين بيتاً منها أحد عشر بيتاً فى الغزل ، وتسع فى المديح .

وقصائده فى المديح ذات معان متكررة ، وصفات يخلعها على ابن جلدك ، كما يخلعها على المعطى ، وكما يصف بها السلاطين والملوك ، فهم بحار فى الجود وغيوث . وهم أسود فى الشجاعة وليوث . وهم ذوو حلم وذكاء وعزيمة ومضاء ... يفتتح قصائده بالغزل غالباً .

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه   وأردتُ قبل الفرض أن أتنفَّلا

وما دام الغزل تنفلا — كما يقول — فقد يعمد إلى المديح من غير تقديم . . .

وبعد أن يخلع على الممدوح صفات الشجاعة ، والكرم ، واليقظة ، والعزيمة ، والقدرة . . . . ينتقل إلى مدح آبائه وأجداده ، فالممدوح ماجد الأصلاب ، كريم الأصول ، ولربما تعرض إلى مدح أنجاله . . . ثم يختم بذكر شعره والفخر به . . .

والبهاء طويل النفس فى المدح بخاصة ، ومدائحه معرض للاقتباس الأدبى ، وميدان تظهر فيه ثقافته النحوية والشرعية والأدبية ، كما تتوارى نزعته المصرية فى قصائد المديح على وجه العموم . . . فمديح البهاء لا يدل على فنه ، ولا على طبعه ، فهو يجرح إباءه ، ويحطم فنه ، ولا يتجلى فيه ما عرف به من روح خفيفة ، وطابع لطيف . . .

والبهاء يستغل أسماء ممدوحيه فى المعانى التى يتناولها حين يمدح : فقصائده لم تحسن إلا لأنها حوت أحرفاً من اسم الممدوح :

وما حَسُنَتْ عندى وحقِّك إذ غدت   هى التبرُ مسبوكاً أو الدرّ منتقى

ولا أن جَرَتْ مَجْرى النسيم لطافةً   ولا أن حكى زهرَ الرياض المعتقا

ولكنها حازت من اسمك أحرفاً   كستْها جمالا فى النفوس ورونقا

ومن هنا نراه يقول فى الملك الكامل :

وأقسم لولا همـــة ٌ كاملية لخافت رجالٌ بالمقام وبالحجر
فقل لرسول الله إن سميه حمى بيضةَ الإسلام من نوب الدهر

وفى الصالح نجم الدين أيوب يقول :

فإليك يا نجمَ السماء فإننى قد لاح نجمُ الدين لى يتألق
الصالحُ الملك الذى لزمانه حُسنٌ يتيه به الزمانُ ورونق

وفى العادل يقول :

إلى العادل المأمول للدهر إن سطا به يتجلى ظلمُهُ وظلامه

وهو فى مدائحه يحب أن يستوثق من صلة ممدوحه الدائمة على الرغم من أنه ذكر بأن أشعاره لم تكن للاستجداء :

وما قلت أشعارى لأبغى بها الندى ولكننى فى حلبة الفضل سابق
أأطلبُ خيرَ الله من عند غيره وأسترزقُ الأقوامَ والله ُ رازق ؟

يقرر هذا على حين يقول فى مجد الدين اللمطى :

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها فتزداد حسناً كالقريض مجنسا

ويقول :

يا من إذا بدأ الجميل أعاده فجميـــله بجميله موصـــول

فإذا كان مع الصالح نجم الدين أيوب اطمأن إلى منزله عنده فيقول :

وحللت عندك إذ حللت بمعقل يلوى لديه ماردٌ والأبلق
وتيقّن الأقوام أنىَ بعدها أبداً إلى رُتب العلا لا أسبق
فرزقتُ ما لم ، يرزقوا ونطقت ما لم ينطقوا ، ولحقتُ ما لم يلحقوا

وبعد : فهل بلغ الطموح عند البهاء زهير مبلغاً يطلب فيه هو الآخر ولاية حين يقول فى الناصر :

وبعض عطاياه المدائنُ والقُرى فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبحُ ؟

وقد صدر فى قصيدته التى مدح بها الملك الكامل — عن روح دينية ، واعتزاز بموقف المسلمين فى معركة دمياط ، فجاءت هذه القصيدة معبرة عن شعوره نحو هذا الانتصار . . . من غير أن يخلطها بما عهد عنه فى قصائد المديح من استجداء الصلة أو العطاء . . .

ويدعى فى مدائحه أنه يقصر مدحه على الممدوح لا يتعداه :

يقول فى مدح الأمير نصير الدين اللمطى :

إلى اليوم لم تكشف لغيرك صفحة فها هى مسدولٌ عليك ستارها

ويقول فى مجد الدين اللمطى :

وربَّ قواف قد طويتُ برودَها فلم أرضَ أن تغدو لغيرك ملبسا

ويقول فى الملك الصالح أيوب :

يا من رفضتُ الناس حين لقيته حتى ظننت بأنهم لم يخلقوا
قيدت فى مصر إليك ركائبى غيرى يغرِّب تارةً ، ويشرِّق

* * *

ونهج مدائحه — غالباً — على النهج الذى ذكره فى قوله :

نسيبٌ كما رقَّ النسيم من الصبا وغازله زهرُ الرياض المفتح ؟
ومدحٌ يكونُ الدهرُ بعض رواته فيمسى ويضحى ، وهو يسرى ويسرح

وكما يقول فى الملك الناصر :

غزلٌ ومدحٌ بثَّ أغرق فيهما كالخمر مازجه الزلال السلسلا

ولما وقع بينه وبين مجد الدين اللمطى جفوة ، جعل مدحه مزيجاً بالغزل والشكوى والعتاب إذ يقول :

نسيب كما يهوى العفافُ منزهٌ ومدحٌ كما تهوى المعالى معظم
وشكوى كما رقَّ النسيمُ من الصبا وعتبٌ كما انحل الجمان المنظم

* * *

وغالباً ما يختم مدائحه بالفخر بشعره والثناء عليه، قال فى ختام مدحة ابن جلدك :

أتتك القوافى وهى تحسب روضةً ... لما ضمنته وهو قولٌ مزخرف
ولو قصدت بالذم شانيك لاغتدى ... وحاشاك منه قلبه يتنظف
تقلدُ عاراً ، وهى درٌ منظم ... وتلبس حزناً ، وهى بُرْدٌ مفوّفُ
وتصلى جحيماً ، وهى فى الحسن جنة ... وتسقى دهاقاً ، وهى صهباء قرقف

* * *

ويعرض فى مدائحه بالشعراء السابقين ، ويدعى لنفسه التفوق عليهم ؛ يقرر ذلك مع زهير بن أبى سلمى حين يقول مادحاً الأمير نصير الدين اللمطى :

هذا زهيرُك لا زهيرُ مزينة ... وافاك لا هرماً على عِلاته

ويقرره مع الفرزدق وجرير ، إذ يقول عن قوافيه :

إذا ذكرت فى الحى أصبح آيساً ... فرزدقها من وصلِها وجريرُها

ثم يذكر طرفة بن العبد والمتلمس فيقول :

سيرضيك منها ما يزيدُ على الرضا ... ويستبعدُ ابنَ العبد والمتلمسا

كما يذكر النابغة والحطيئة حين يقول :

مولاى قد أهديتها لك كاعباً ... عذراءَ تبدو عُذْرةً وتنصلا
لو أنها ممن تقدَّم عصره ... صفعت زياداً أن يقول وجرْولا

ثم يدعى لنفسه إمارة الشعر ، إذ يقول :

وللناس أشعارٌ تقال كثيرةٌ ... ولكن شعرى فى الأمير أميرها

* * *

٣ ـ الهجاء :

كان البهاء زهير مرهف الإحساس ، لطيف الروح ، دقيق المشاعر ، يأنس للمعاشرة الكريمة ، وينفر من التصرف الشاذ ، ويأبى مجانبة الذوق ، ويضيق صدره حرجاً بالخروج عن أصول اللياقة .

ومن أجل ذلك هجا البارد الثقيل من الناس ، وكره أن يلزمه ــ على الرغم منه ــ جاهل مختال ، أو منافق كذوب ، أو جليس أحمق ، أو محدث ثرثار ، أو زائر غبي ، أو رقيب عذول ، أو مدّع للعلم وهو جهول ، أو صاحب خؤون ، أو مغتاب حقود ، أو مؤمل يخيب الراجين ، أو متحفظ في مجالس اللاهين ، وربما ألا تكون له صلة بأحد من هؤلاء .. ولذعهم بالتهكم والهجاء :

أرى قوماً بليتُ بهم نصيبي منهم نصبي
فمنهم من ينافقُ لي فيحلفُ لي ويكذب بي

وأكثر ما أتعبه ثقل الثقلاء فيقول :

وثقيــل كأنمــا ملك الموت قربه
ليس في الناس كلهم من تراه يحبه
لو ذكرت اسمه على الأ ماء ما ساغ شربه

أو يقول :

وثقيــل ما برحنا نتمنى البعدَ عنه
غاب عنا ففرحنا جاءنا أثقــل منه

وقد تكرر هجاؤه للثقلاء في مواضع كثيرة من ديوانه . . . وجاءت أهاجيه في الأعم الأغلب مقطوعات صغيرة ، خفيفة الروح ، فطرية النزعة ، خالصة التهكم ، لاذعة السخرية ، نافذة السهام . . .

٤ ــ الفخر :

وفخر البهاء أكثر ما يكون بشعره ، فلا قائل غيره :

بعمرك ما في القوم غيريَ قائلٌ وهذا مجال للجياد وميدان

وشعره يستميل المسامع بفتونه ، ويستهوى المخدرات ، ويتغنى به الندامى ، ويستشهد به المتصوفون، وتقضى به الحاجات ، ويستعطف به العشاق ، فيه راحة للروح ، ومسلاة للقلوب ، ومصرف للهموم .

كذلك ! يفخر البهاء بحبه ، وأنه دمث الخليقة ، رقيق الحاشية ، وفى لا يخون :

أنا فى الحب ألطف الناس معنى دمثُ الخلق ، ذو حواش رقاق
أعشق الحسنَ والملاحةَ والظر فَ ، وأهوى محاسنَ الأخلاق
لم أخنْ فى الوداد قطّ حبيباً فينادَى علىّ فى الأسواق

وهكذا كان فخر البهاء ، فخر بمذهبه فى الأدب والحب ، فكان له فى هذين غنى أى غنى عن الفخر بالأحساب والأنساب .

٥ — الوصف :

أحب البهاء مصر ، واهتزت شاعريته لطبيعتها ، وهتف بها واصفاً ، وتحدث فى وصفه عن النيل ، وأمواجه ، والمراكب فيه ، والجو ، والأزاهير ، والأثمار ، والدوحات ، والطيور ، والمروج ، والنواعير ، وتراب مصر وحصباءها ، وآصالها ، وأكثر ما يتحدث عن ذلك وهو مغترب ، فهو حينئذ يحن إلى مصر ويذكر مجاليها وأيامه ولياليه فيها .

وكان للبهاء فى صبوته مجالس لهو اتخذها بالجيزة والجزيرة ، ودعا إليها خلصاءه وخلطاءه ، فوصف هذه المجالس ، وما يحيط بها من طبيعة ضاحكة ، وما يقوم فيها من طعام وشراب ، وتفنن فى وصف الخمر ، ولطفها ، وتعتقها وإشراقها ، ورقتها ، وسقاتها ، وفعلها فى الشاربين ، والغناء والمغنين ، ولم يفته — بعد ذلك — أن يتحدث عن الطهاة ونظافتهم ، والقدور التى تهدر على الجمر وتفور . . . .

وتحدث البهاء عن ليالى الأنس والوصال ، ووصف سرعة مرورها ، وحلاوة

المسامرة فيها ، أما الليالي التي يفتقد فيها المؤنس المسامر فهي طويلة ذات قسوة وإملال . . .

وقد يخلط البهاء وصفه بالدعابة ، ومن ذلك مقطوعة له في وصف بغلة عجفاء ، وأخرى في وصف فرس هزيلة ، كما قد يخلط الوصف بالتهكم والسخرية والهجاء ، وذلك في قصيدته في وصف رجل ذى لحية كبيرة ، والتي يقول في أولها :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشره

٦ — تشوقه وحنينه :

فارق البهاء زهير الحجاز فاشتاق له ، وحن إليه ، ثم أحب مصر ونسب إليها ، وامتزجت بخاطره ، وجرت في عروقه فكان مصرياً خالص المصرية ، وكما تجلت مصريته هذه في ألفاظه وتعابيره ، تجلت في أحاسيسه وهواجس ضميره ، بل قد تكون هذه داعية إلى تلك . . .

كانت نفس البهاء تنازعه عند الرحيل وتغالبه ، أيرحل عن مصر ، أيغادر طيب نعيمها ؟ أيترك مجلس الحسن ، وقرة العين ، وبهجة الفؤاد ؟

أأرحلُ عن مصر وطيب نعيمها وأىّ مكان بعدها لى شائق ؟

وهو دائم الحنين إليها مغترباً عنها ، لا يرى بلداً من البلاد يفوقها في رفاهة العيش ، ومظاهر الجمال :

ولم أرَ مصراً مثلَ مصرٍ تروقنى ولا مثلَ ما فيها من العيش والخفض

ويرسل وهو في غربته لحناً حزيناً ، ويبعث بالقريض إلى مصر شوقاً وحنيناً :

أيام مصرٍ ليتها فُديتْ بأيامى البواقى

ويدعو لها بالسقيا ، ويذكر ترابها وحصباءها ، ويتشوق إلى أهلها في قصيدته التي أولها :

سقى وادياً بين العريش وبرقةٍ من الغيث هطّالُ الشآبيب هتانُ

٧ — الرثاء :

ولشاعرنا فى الرثاء سبع مقطوعات ، عدتها ثمانية وثمانون بيتاً ، وهى فى رثاء بعض أصدقائه دون الملوك ، وهنا يعرض سؤال : أين الملوك الذين عاشرهم جميعاً ، ومدحهم جميعاً ، وشهد موتهم واحداً بعد الآخر ؟ إن كان الملك الصالح قد غضب عليه وصرفه من خدمته فى رياسة ديوان الإنشاء فأين رثاء الكامل ، والعادل ، والناصر ؟ وأين اللمطيون جميعاً ؟ لقد كان البهاء زهير طويل العمر : عاش خمساً وسبعين سنة ، وعاصر الدولة الأيوبية فى مختلف أدوارها ، لم يرث إلا صديقاً له هو فتح الدين عثمان بن حسام الدين والى الإسكندرية ، وكان قد توفى بآمد سنة ٦٣١ هـ ، ثم رثا أخاً لابن مطروح ، ثم رثا شخصاً يسمى علياً لم يذكر فى الديوان صلته به ، ثم المقطوعات الباقية لا يعرف فيمن قيلت ، فهل شغل عن اللمطيين بالملوك ، وهل شغل عن الملوك بالملك الصالح أيوب ؟ وهل شغله عن الصالح طرده من خدمته ؟ ثم أين رثاء ابن مطروح الذى مات قبل البهاء بسبع سنين ، وكانا يتعاطفان ويتوادان حتى إن البهاء قال — وقد علم بمرضه :

لقد ضاعفت يا روحى ... لروحى الهمّ والنصبا

وإذا كان هذا يقال فى المرض ، فكيف لا يرثيه ؟ !

ويزداد الموقف غموضاً إذا علمنا أن ابن مطروح طلب منه أن يندبه ويبكيه فى قوله :

إذا أنا متّ فاندُبْنى ... فربّ أخ أخاً ندبا
وقل مات الغريبُ فأيـ ... ـن من يبكى على الغُرَبا

فهل الديوان منقوص ؟ وهل انطواء البهاء فى آخر أيامه على نفسه فى عزلته

وسوء حاله ورقته صرفه عن قول الشعر حتى فى واجب العزاء لأوفى الأوفياء ؟ ! وأين أوائل أيامه ؟

وربما كان لطبيعة البهاء ونظرته الفرحة إلى الحياة، ومعرفته بها ، وأنه لا يجدى مع الموت رثاء ، ولا يرد الميت بكاء ، ربما كان شيء من ذلك يعلل لنا هذا الاتجاه عند البهاء .

ورثاء البهاء فيه الرقة ، وفيه الحسرة والأسى ، كما قال :

أبكيك بالشعر الذى قد رق حتى صار دمعا

ولكنه لا يبكيك ولا يسليك ، تتكرر معانيه فى رثائه ، ويدعو للقبر بالسقيا وقد يرسل أحياناً الموعظة فيها التصبر ، وفيها العزاء :

وما الناسُ إلا راحلٌ وابنُ راحل إلى العالم الباقى من العالم الفانى
وإلا فأينَ الناسُ من عهد آدم ومن عهد نوح ثم منه إلى الآن ؟

وأفضل منه قول أبى نواس :

ألا كل حىّ هالكٌ وابنُ هالك وذو نسب فى الهالكين عريق

* * *

وهناك معنى يكرره البهاء ، وهو استنكار بقائه بعد وفاة من يعزيه ، وأنه يرمى نفسه بالغدر حيناً ، ويعتذر حيناً بأن الموت ليس فيه وفاء ، وهيهات أن يموت إنسان لإنسان ! ! :

لقد خنته فى الود أن عشتُ بعده وما كنتُ فى ودّ الصديق بخوّان

ويقول :

أتمضى أنتَ منفرداً وأبقى ؟ لقد غدرتك نفسك يا وفىّ

أو يقول :

وما لى أدّعى أنى وفىّ ولست مشاركاً لكَ فى بلاكا
تموتُ وما أموتُ عليك حزْناً ؟ ! وحقّ هواك خنتُك فى هواكا

ثم يقول فى هذا المعنى ، ويعتذر من عدم الوفاء :

وما كنتُ عنه أملكُ الصبرَ ساعةً فما صارَ أنسانى عليه وأقصانى
هو الموتُ ما فيه وفاءٌ لصاحب وهيهاتَ إنسانٌ يموتُ لإنسان

إلى غير ذلك من المعانى التى سبقه بها الشعراء وليس فيها من جديد : فهو يذكر التصبر ، والنهى عن الجزع ، وأنهم دفنوا يوم وفاته المعروف ، وأن خيال الميت ماثل أمامه لا يفارقه ، وأنه طاب حيًّا وميتاً ، وأنه ماتت بموته المسرات :

فبعدكَ ليس يُفْرِحُنى بشيرٌ وبعدك ليس يحزننى نَعِىٌّ
تكدرَ فيك صافى العيش لما عدمتُك أيها الخِلُّ الوفِىّ

* * *

وهو يكاد يشبه فى رثائه النادبات النائحات فى المآتم :

« واقلة أنصارى ! يا منتهى سؤلى ! يا مشتكى حزنى ! يا حافظ أسرارى ! »

* * *

وإذا كان الأول يقول :

أما القبور فإنهن أوانس من بعد موتك والديار قبور

فإن البهاء يقول :

الدارُ من بعد النوى قد أصبحتْ فى وحشة يا مؤنسَ الدار

وهذا مثل من أمثلة سبق البهاء فى معناها الشعراء السابقون .

أما الذى انفرد به فى هذا الباب فهو ذلك « الوفاء » الذى نلمحه فى رثائه ، وقد قدمت أبياتاً هى مظهر ذلك الوفاء .

٨ — متفرقات :

فى المشيب :

وللبهاء زهير بضع قصائد فى المشيب ، يتحسر فيها على شبابه الراحل ، وتتراءى أمامه أطياف الماضى بما فيه من جمال الحسان ، وكأس المدام ،

فيهتز لها ، ويهيم بها ، ويحن إليها ، يدفعه إلى ذلك كله قلب لا تزال فيه بقية من شمائل المرح الطروب ، ولكنه يكتم صبابته ، وينيب إلى ربه ، ويلتمس منه العفو والغفران . . .

فى النصح والإرشاد :

وللبهاء زهير مقطوعات وأبيات فى النصح والإرشاد : أوحى بها إليه تجاربه الكثيرة ، وخبراته المتعددة فى عمره المديد ، واختلاطه بطبقات الناس ، من العامة والملوك ، والمرؤوسين والرؤساء ، وتعامله مع هؤلاء وهؤلاء ، وهو أحياناً يمزج نصحه بالحكمة يشتقها من مقتضى الحال ، ويبرهن على ما يسوقه من نصح بما يناسب المقام ، ومن أمثلة شعره فى هذا الباب قوله :

توقَّ الأذى من كل نذل وساقط فكم من تأذى بالأراذل سيد
ألم تر أن الليث تؤذيه بقة ويأخذ من حد المهند مبرد

التصوف :

وكان فى البهاء زهير نزعة صوفية تتمثل فى الابتهال والرضا وطمأنينة النفس ، والتسليم لما تأتى به الأقدار ، وله مقطوعات استعمل فيها ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم : كالخطرات ، والفتوح ، وصاحب الوقت ، والإخلاص لله ، والصحبة فيه .

(ح) شعره صورة لحياته :

سجل البهاء زهير فى شعره نبضات قلبه ، وخلجات عواطفه ، كما صوّر حياته تصويراً واضحاً فى يسر ، وسهولة ، ولطف ، تحدث فى شعره عن أيام صباه بالحجاز ، وظل به لهجاً يذكر أيامه فى حنين واضح ، وشوق ملح ، وقد أفرد فى ديوانه قصيدتين حجازيتين ، إحداهما مطلعها :

أحنّ إلى عهد المحصّب من منى وعيش ٍ به كانت ترفُّ ظلاله

والأخرى مطلعها :

سقى الله أرضاً لست أنسى عهودها ويا طول شوقى نحوها وحنينى

ولم يكن مظهر الحجازية عند البهاء هاتين القصيدتين فقط . كيف وهو الذى يقول :

مقيم بقلبى ـ حيث كنتُ ـ حديثُه وباد لعينى حيث سرتُ خياله

وإذن ليهتف بالحجاز ، ومجالى الحجاز فى خلال قصائده . وهكذا فعل ، فاشتق كثيراً من استعاراته ، وتشبيهاته ، وبديعياته من ألفاظ حجازية كأن يقول :

ويا حرَم الحسن الذى هو آمنٌ وألبابنا من حوله تتخطف

أو يقول :

يا منسك المعروف أحرمَ منطقى زمناً ، وقد لبَّاك من ميقاته

حتى ذكر الحجاز فى الغزل ، وذلك إذ يقول :

يا خصره ، يا ردفه من لى بنجد أو تهامه ؟

وفى المدح حيث يقول :

وأقسم لولا همة كاملية لخافتْ رجالٌ بالمقام وبالحجر

وهكذا تتراءى مجالى الحجاز أمام البهاء ، فيهتف بها مادحاً ، أو متغزلاً أو مشوقاً مؤملا . . .

* * *

كذلك سجل البهاء فى شعره الفترة التى أقامها فى الصعيد متطلعاً إلى غايات المجد ، وخدمة الملوك ، يقول :

ويرتاحُ قلبى للصعيد وأهليه وعيش مضى لى عندكم ومقام
وأهوى ورودَ النيل من أجل أنه يمرّ على قوم لدىّ كرام

ولم يكن حينئذ بالرجل ذى المكانة حتى يؤبه به . . . كان يرد عن الأبواب بخشونة الخدم والحجاب :

فمالىَ ألقى دونَ بابك جفوةً لغيرك تعزَى لا إليك، وتنسب
أردُّ بردِّ الباب إن جئت زائراً فيا ليت شعرى ! أين أهلٌ ومرحب؟

ويستمر البهاء فى اتصالاته بالحكام حتى يتحقق أمله المرجو ، فيقول مخاطباً الملك الصالح :

وقد قرّبَ الله المسافة بيننا فها أنا يحوينى وإياه إيوان

وفى هذه المرحلة يبتسم الزمان للبهاء، وتقبل الدنيا ببهرجها وزينتها عليه ، فيكون صاحب عطاء كما يكون صاحب لهو وغناء، وطرب ونساء ، فشرب وطرب ، وكانت له مجالس دعا إليها .

وإنك لتجد فى شعر البهاء صورة صادقة لعواطفه وأحاسيسه غريباً عن مصر ، ملتحقا بخدمة الملك الصالح ، وراحلاً متنقلاً بين نابلس ، وحلب ، ودارا ، وآمد ، وذكر وهو فى البلاد الشرقية شكواه من ارتحاله الذى لا يفتر :

إن أمرى لعجيبٌ لا يرى أعجب منه
كلّ أرض لى فيها غائبٌ أسألُ عنه
أينَ من يشكو من البـ ـين كما أشكوه منه ؟

ثم يشاء الله أن تهدأ نفس البهاء المشوقة ، فتقبل الأيام على الملك الصالح ، ويعود إلى مصر ممكاً على عرشها ، ويعلو نجم البهاء ، ويؤمّر على ديوان الإنشاء ، وفى ذلك يقول :

وسفرت للملك العظيم (م) الشأن والقدر الرفيع

ويكون لذوى الحاجات نعم المعين ، ثم تدور الدائرة عليه ، فيعود إلى عزلته وقد كبرت سنه ، وتجتمع عليه من أحداث الزمن وتقدم السن ما يجعله يعود إلى إرسال الشكوى والأنين باللحن الحزين، وتجبره الأيام على بيع كتبه ونفائسه ، وما أشد

وقع ذلك على البهاء !! أليس هو الذى قال :

أقبحُ من وعد بلا وفاء ومن زوال النعمة الحسناء ؟

ويلحقه الإعسار فيقول :

وصاحب أصبحَ لى لائماً لما رأى حالةَ إفلاسى
قلت له : إنى امروٌ لم أزلْ أفنى على الأكياس أكياسى
ما هذه أولُ ما مرّ بى كم مثلها مرّ على راسى

وفى السبعين يقول :

نزل المشيبُ وإنّه فى مَفْرِق لأعزّ نازل
بالله قلْ لى يا فلان (م) ولى أقول ولى أسائل
أتريدُ فى السبعين ما قد كنتُ فى العشرين فاعل؟!

* * *

ثم تطوى هذه الصفحة بما فيها من جد ومجون ، ولهو ، وفتون ، وكان آخر ما خط فيها على ما هو منقول :

ما قلتَ أنتَ ، ولاسمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليق بنا
إن الكرامَ إذا صحبتهمُ ستروا القبيحَ ، وأظهروا الحسنا

(ط) شعره صورة لعصره :

ويلقى شعر البهاء ضوءاً على الحياة فى عصره ، فهو يشير إلى كثير من العادات الدينية ، وأحوال المجتمع ، كالنذور للأولياء فى أضرحتهم بالمساجد ، وكالحديث عن طائفة الرفاعية وما عرف عنهم من خوض النيران ، وتسبيح المؤذنين فى الأسحار ، وعن مظاهر الاحتفال فى عهده من دق الطبول ، ورفع الرايات ، وعن حجاب الرؤساء وخشونتهم ، وعن اللعب بالنرد ، والخط على الرمل والتنجيم لمعرفة ما يكنه الغيب ، وعن المرائين الذين يظهرون الزهد وهم على الدنيا متكالبون ، وعن المرءوسين الذين يبذلون جهودهم ورؤساؤهم عنهم غافلون إلى غير ذلك من شئون المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، ومن أمثلة ذلك قوله :

يا أيها الباذلُ مجهوده في خدمة ، أفّ لها خدمه !
إلى متى في تعبٍ ضائع بدون هذا تأكل اللقمه !
تشقى ، ومن تشقى له غافل كأنك الراقصُ في الظلمه

٣ — منزلته

البهاء مذكور في التاريخ بدماثة خلقه ، كما هو مشهور بعذوبة لفظه ، وسهولة أسلوبه ، ووضوح معناه ، ذكره ابن خلكان فقال عنه إنه : « من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطًّا ، ومن أكبرهم مروءة » ، وقال في موضع آخر : « وكنت يومئذ[1] مقيماً بالقاهرة ، وأود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ، ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة السجايا . . . »

ووصف ابن خلكان شعر البهاء فقال : « وشعره كله لطيف ، وهو كما يقول : "السهل الممتنع" . وإن كان ذلك الحكم لم يرض اليافعي اليمني صاحب "مرآة الجنان وعبرة اليقظان" فقال في شعر البهاء : لم أكتب شيئاً منه ، ولا أعجبني ، ولا قوى عزمي الضعيف » . وليس عجيباً أن تتفاوت الآراء في المذهب الشعري للبهاء ، وإن كان الأعم الأغلب من النقاد يكادون يثنون على مذهبه في الشعر من القدامى والمحدثين على السواء :

يقول هيار في كتابه الأدب العربي :

« إن شعر البهاء يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف » .

ويقول بلمر : إن شعر البهاء زهير يشابه الشعر الأوربي ، وأكثر أفكاره تحاذي أفكار الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر » .

---

(١) أواخر ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق :

« لست أعرف شاعراً نفخت مصر فيه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير ، فهو مصرى فى عواطفه ، وفى ذوقه ، وفى لهجته إلى الغاية القصوى » .

٤ ــ تأثره

تأثر البهاء زهير بألوان الثقافة الشائعة فى عصره ، وقد بَيَّنْتُ قَبْلُ تأثره بالمتنبي وأبى نواس ، وقد صاغ البهاء بعض ما قال فى الغزل فى أسلوب قصصى ، وأراه متأثراً فى ذلك بعمر بن أبى ربيعة ، كما تأثر به فى تغزله بنفسه أحياناً ، وذلك حين يقول :

وقائلة لما أردت وَدَاعها	حبيبى ! أحقًّا أنت بالبين فاجعى ؟
فيا ربّ لا يصدق حديثٌ سمعته	لقد راعَ قلبي ما جَرَى فى مسامعى
وقامت وراء السّتر تبكى حزينةً	وقد نقبته بيننا بالأصابع

ويذكر ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ما يدل على تأثر البهاء فى غرامياته بالحاجرى والتلعفرى حيث نصح الشيخ نور الدين على بن سعيد الأندلسى بمطالعة ديوانهما[1] .

وفكاهات البهاء ودعاباته وروحه المصرية تذكرنا بفكاهات الشعراء فى العصر الفاطمى الذى مثلوا بشعرهم الروح المصرية ، ومزاج المصريين ، وميلهم إلى الدعابة والتنكيت[2] .

كذلك يعد ولوع البهاء بألوان البديع امتداداً لولوع هؤلاء الشعراء الفاطميين[3] .

---

(١) « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى : ٨ .

(٢) من أمثلة الدعابة فى الشعر الفاطمى ما قاله الجليس بن الحباب (ت ٥٦١ هـ) يشكو طبيباً :

وأصل بليتى من قد غزانى	من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين	يفرق بين عافيتى وبينى
أتى الحمى وقد شاخت وباخت	فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف	حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة فى كل يوم	فصيرها بحذق مرتين

(٣) « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » لشوقى ضيف .

٥ ـ تأثيره

يذكر ابن خلكان أن ديوان البهاء كان كثير الوجود بأيدى الناس[١] ، ومعنى هذا تقدير الناس لشعر البهاء ، وشغفهم به ، وبعد تأثرهم بطريقته، ونص ابن حجة الحموى صريح فى تتلمذ على بن سعيد الأندلسى على طريقة البهاء الغرامية ، واسترشاده به فى سلوكها ، وفى البيتين الآتيين لابن سعيد هذا يترقرق مذهب البهاء ، يقول ابن سعيد :

واطول شوقى إلى ثغورٍ ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخذتُ الذى تراه يعذُبُ من شعرىَ الرقيق[٢]

وكان الأندلسىّ يعرض على البهاء شعره ، ويصلح البهاء عليه ما يقول[٣] . . .

ومن نسج على منوال البهاء فى استعمال المعانى البلدية ابن نباتة من شعراء مصر فى القرن الثامن الهجرى ، حيث يقول :

يا مشتكى الهمّ دعهْ وانتظرْ فرَجاً ودارِ وقتَك من حينٍ إلى حين
ولا تعاندْ إذا أصبحتَ فى كدر فإنما أنتَ من ماءٍ ومن طين

ولا يزال البهاء حتى هذا الزمان مذكوراً بمذهبه فى التقريب بين الفصحى والعامية ، وتطويع اللغة الدارجة لأداء المعانى ، والتعبير عن مختلف العواطف مع تصحيح لغة الحياة العادية على مقتضى قواعد العربية .

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٢/٨٣ .
(٢) « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى : ٨ .
(٣) المرجع السابق .

٦ – روحه المصرية

ظهرت الروح المصرية فى شعر البهاء : تجلى ذلك فى الكلمات المفردة، كما تجلت فى الشطر من البيت، وفى البيت، وفى البيتين، والمقطوعة، وفيما يلى بعض الأمثلة بذلك :

ا – فى الكلمة :

(١) الجديد والخليع

ذهب الجديدُ من الشبا ب فكيف ظنك بالخليع

(٢) مستهتر بمعناها العامى

بعض ما ألقاه منه أنه لا يزال الدهرَ بى مستهترا !

(٣) سلمت، ودمت

سلمتَ من كلِّ ألم ودمتَ موفورَ النعم

(٤) كُفُور

فأضحى بها من خالف الدين خائفاً وضاق على الكفّار منها كُفُورُها

(٥) زبون

وحقكمُ عندى له ألف طالب وألف زبون يشتريه بزائد

(٦) مشفق بمعنى ناصح وشفيق

ومالىَ أخفى عن حبيبى ضرورتى وما هو إلا مشفقٌ ونصيح

(٧) البكُ – والشيشُ

فالبكُ فى النرد وهو محتقر خير من الشيش عند حاجته

(٨) صدفة بمعنى المصادفة

عسى نظرة من حسن رأيك صدفة تسوق إلى جدبى بها الماءَ والكلا

(٩) وحياتكم

أحبابنا وحياتكم سرّ الهوى عندى مصون

وفى بعض هذه الكلمات خطأ لغوى مثل كلمة (صدفة) و (مشفق) و (مستهتر) ، ولكنها مصرية البهاء زهير هى التى أوقعته فى مثل هذه الأخطاء ، شأن ما يجرى على أقلام بعض الكتاب والشعراء من الأخطاء اللغوية فى هذه الأيام . . .

ب — الروح المصرية فى شطر البيت :

(١) نقطع الطريق بالحديث

تحتُ مطيّنا الأشواقَ منا ونقطعُ بالأحاديث الطريقا

(٢) ده شيء ما مرش ببالى

ولكن بدا منه جفاءٌ فساءنى وذلكَ شىءٌ لم يمرّ ببالى

(٣) الذنب ذنبي

أشكو لك الشوقَ الذى لاقيته ، والذنبُ ذنبي

(٤) قلبي عندك

قلبي لديك فكيف أ نـ ـتَ على البعاد وكيفَ قلبي ؟

(٥) زىّ الضرتين

نحن كما الضرتين فى معركة أدّرعُ الصبرَ عند لُقياها

(٦) حفظها « زى الفاتحة »

وغادة بوصلها مسامحة تحفظُ ودى مثلَ حفظ الفاتحه

(٧) بعض ما عندى

فكل ما عندكَ من وحشة فإنها بعضُ الذى عندى

(٨) أسكنّك فى عينى — أفرش لك خدى

ويا ليتَ عندى كلَّ يوم رسولكم فأسكنه عينى ، وأفرشه خدى

(٩) لا شغله ولا مشغله

أصبحتُ لا شغل ولا مزرعة مذبذباً فى صفقة خاسره

(١٠) مين يقول ؟ ومين يسمع ؟

وكم قلت ولكن أين من يسمع ، أو يدرى ؟

(١١) سأذكره بخير — بالله اكتموا ذاك الحديث

صديق لى سأذكرُه بخير وأعرفُ كنه باطنه الخبيثا

وحاشا السامعين تسال عنه وبالله اكتموا ذاك الحديثا

(١٢) على العين والراس

وجاهل أصبحَ لى عاتبا قلتُ على العينين والراس

(١٢) اعمل حسابك

احسب حسابك فى الذى تنويه من قبل الشروع

(١٣) امشى على عينى لك وراسى

حق علىَّ ، وواجب لك أننى أمشى على عينى إليكَ وراسى

(١٤) احنا فى الحقيقة واحد

أنا فى الحقيقة أنتم هذا اعتقادى فيكم

(١٥) احنا اخوان – مافيش تكليف

أشكو إليك لأننا أخوان سيان شأنك فى الخطوب وشانى
سقط التكلف والتجملُ بيننا فالأهلُ أهلى ، والمكانُ مكانى

(١٦) الحيطة لها ودان

إياك يدرى حديثاً بيننا أحدٌ فهم يقولون : للحيطان آذان

(١٧) النوم سلطان

من لى بنوى أشكو ذا السهاد له فهم يقولون : إن النومَ سلطان

(١٨) ما الحيلة ؟ قل لى ما العمل ؟

مولاى! ما الحيلة؟ قل لى : ما العملْ؟ إن صحّ ما قد ذكرُوا فلا تسل

(١٩) نهارنا أبيض

فتفضلْ فيومنا بك إن زُرتنا أغر

(٢٠) العقل زينة

ما العقل إلا زينة سبحان من أخلاك منه

حـ – الروح المصرية فى البيت الواحد :

(١) رأيتك قد عبرت ولم تسلم كأنك قد عبرت على خرابه!
(٢) رجعنا مثل ما رحنا ولم نربح سوى التعب
(٣) وليس يخرجُ حتى تكاد تخرج روحى
(٤) والله إنا بخير ما دمتَ أنتَ بخير
(٥) فاحفظْ لسانك تسترحْ فلقد كفى ما قد جرى
(٦) ليت خدّى كان أرضاً لك فى طول الطريق

د ـ التعابير المصرية فى البيتين والمقطوعة :

(١) لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا واحداً ثم واحدا

* * *

(٢) ملكتمونى رخيصاً فانحطّ قدرى لديكم
فأغلقَ الله باباً دخلتُ منه إليكم
وحقكم ما عرفتم قدر الذى فى يديكم
حتّى ولا كيف أنتم ولا السلام عليكم

* * *

(٣) لعن الله حاجة ألجأتنى إليكم
وزماناً أحالنى فى أمورى عليكم
فعسى الله أن يخلصنى من يديكم

الفصل الرابع

منتخبات من آثار البهاء زهير

١ ــ البهاء زهير الكاتب

بعث ملك الفرنجة بكتاب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ينذره فيه بالويل والثبور قبيل معركة دمياط فعهد السلطان إلى البهاء زهير فى كتابة الجواب فقعل .

رسالة ملك الفرنجة

أما بعدُ : فإنه لم يخفَ عليك أنّى أمينُ الأُمةِ العيسوية ، كما أنه لا يخفى علىّ أنّك أمين على الأُمّة المُحمدية .

وغيرُ خافٍ عليك أن عندنا أهلَ جزائر الأندلسِ وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقُهم سوقَ البقر ، ونقتلُ الرجالَ ، ونرمِّلُ النساء ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديارَ ، وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلتُ لك النصيحةَ إلى الغايةِ والنهاية ، فلو حلفتَ لى بكلِّ الأيمان ، وأدخلت علىَّ القُسُسَ والرهبان ، وحملتَ قُدّامى الشمعَ طاعةً للصلبان ، لكنتُ واصلاً إليك ، وقاتِلُكَ فى أعزِّ البقاعِ عليك ، فإما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلادُ لك والغلبة علىَّ ، فيدُك اليمنى ممتدةٌ إلىَّ ، وقد عرَّفتُك ، وعرفتَ ما قلتُ لك ، وحذّرتُك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأُ السهلَ والجبلَ ، وعددهم كعددِ الحصى ، وهم مرسَلون إليك بأسيافِ القضاء .

جواب السلطان كتبه البهاء زهير

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعدُ ، فإنه وصلَ كتابُك وأنت تهدِّدُ فيه بكثرة جيوشِك وعددِ أبطالِك ، ونحنُ أربابُ السيوف ، وما قُتِلَ منا قِرنٌ إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغٍ إلا دمَّرناه ، فلو رأت عينُك أيها المغرورُ حدَّ سيوفِنا وعظمَ حروبنا ، وفتحَنا منكم الحصونَ والسواحلَ ، وتخريبَنا ديارَ الأواخرِ منكم والأوائل ، لكان لك أن تَعَضَّ على أناملِك بالندم ، ولا بدَّ أن تَزِلَّ بك القدمُ ، في يومٍ أولُه لنا وآخرهُ عليك ، فهنالك تسيء الظنون ، « وسيعلَمُ الذين ظلَموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقلِبون » . فإذا قرأتَ كتابي هذا فتكون منه على أولِ سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، وتكون أيضاً على آخر سورة ص : « ولتعلمُن نبأه بعد حين » وتعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئةٍ قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين » . وقول الحكماء : « إن الباغي له مصرعٌ » . وبغيُك يصرعُك ، وإلى البلاء يقلبُك . والسلام » .

٢ ــ البهاء زهير الشاعر

(١) الشاعر القومى :

كفى الله دمياط المكاره

« رأى البهاء فى انتصار الملك الكامل ناصر الدين أبى الفتح محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب على الإفرنج وانتزاعه منهم ثغر دمياط — رأى فى ذلك عزة للدين ، وفخراً للعرب أجمعين ؛ فى مصر ، وفى بغداد ، وفى مكة ، وفى يثرب ، فهز ذلك من شاعريته ، وجعل هذه القصيدة للمدح خالصة ، ذكر فيها جهاد الكامل وصبره حتى ظفر بالنصر المبين ، وجاءت له ملوك الأرض خاضعين ، وعبر عن خواطره نحو هذا كله غير خالط شيئاً من ذلك بطلب رفد أو عطاء ، أو فخر بشعره على الشعراء . . . » قال :

بكَ اهتزَّ عِطفُ الدينِ فى حُلَلِ النصرِ ... ورُدَّت على أعقابِها مِلَّةُ الكُفْرِ

فقد أصبحتْ ــ والحمدُ للهِ ــ نعمةً ... تقصَّر عنها قدرةُ الحمد والشُّكْر

يَقِلُّ بها بذلُ النفوسِ بشارةً ... ويصغُرُ فيها كلُّ شىءٍ من النذرِ

ألا فليقُلْ ما شاءَ من هوَ قائلٌ ... ودونك هذا موضعُ النظمِ والنثرِ

وجدتُ مَحَلاًّ للمقالَة قابلاً ... فما لك إنْ قصَّرت فى ذاكَ من عذرِ

لك اللهُ من مولًى إذا جادَ أوْ سطَا ... فناهيك من عُرْف ، وناهيك من نُكْرِ

تميسُ به الأيامُ فى حُلَلِ الصِّبا ... وترفُل منه فى مطارفِهِ الخُضْرِ

أياديه بيضٌ فى الوَرَى موسويَّةٌ ... ولكنها تسعَى على قدمِ الخِضْرِ

ومن أجله أضحى المقطَّمُ شامخاً ... ينافس حتى طور سيناء فى القدرِ

تدين له الأملاكُ بالكره والرِّضا ... وتخدمُه الأفلاكُ فى النهي والأمرِ

فيامَلِكًا سامى الملائكَ رفعةً ... عن الملإِ الأعلى له أطيبُ الذِّكرِ

ليهنِكَ ما أعطاكَ ربُّك ، إنهـا ... مواقفُ هنَّ الغُرُّ فى موقفِ الحشرِ

وما فرحتْ مصرُ بذا الفتحِ وحدَها ‏ ‏ ‏ ‏ لقد فرحتْ بغدادُ أكثرَ من مصرِ

فلو لم يقم بالله حقَّ جهادِه ‏ ‏ ‏ ‏ لما سلمتْ دارُ السلامِ من الذعرِ

وأُقسِم لولا هِمّةٌ كامليّـةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ لخافت رجالٌ بالمَقامِ وبالحِجرِ

فمن مبلغٍ هذا الهَناءَ بمكةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ويثربَ يُنهيه إلى صاحبِ القبرِ

فقل لرسولِ اللهِ : إن سَميَّه ‏ ‏ ‏ ‏ حمى بيضةَ الإسلامِ من نُوَبِ الدهرِ

هو الكاملُ المولى الذي إنْ ذكرتَه ‏ ‏ ‏ ‏ فياطَرَبَ الدنيا ! ويا فرحَ الدهرِ

به ارتُجِعتْ دمياطُ قهرًا من العِدَا ‏ ‏ ‏ ‏ وطهَّرها بالسيفِ والمِلَّةِ الطُّهْرِ

ورَدَّ على المحرابِ منها صَلاتَه ‏ ‏ ‏ ‏ وكم باتَ مُشتاقاً إلى الشفعِ والوترِ

وأقسمُ إنْ ذاقتْ بنو الأصفرِ الكَرى ‏ ‏ ‏ ‏ فلا حلِمَت إلا بأعلامِه الصُّفرِ

عجيبٌ لبحرٍ جاءَ فيه سفينُهم ‏ ‏ ‏ ‏ ألسنا نراه عندنا ملكَ الغمرِ ؟

ألا إنها من فعلةٍ لكبيرةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ سيطلبُ منها عفوَ حلمِك واليسرِ

ثلاثةُ أعوامٍ أقمتَ وأشهرا ‏ ‏ ‏ ‏ تجاهدُ فيهم لا بزيدٍ ولا عمرو

صبرتَ إلى أن أنزلَ اللهُ نصرَه ‏ ‏ ‏ ‏ لذلك قد أحمدتَ عاقبةَ الصبرِ

وليـلةِ غزوٍ للعدوِّ كأنها ‏ ‏ ‏ ‏ بكثرةِ من أرديتَه ليلةَ النحرِ

فيا ليلةً قد شرّفَ اللهُ قدرَها ‏ ‏ ‏ ‏ ولا غروَ إن سمَّيتُها ليلةَ القدرِ

سددتَ سبيلَ البرِّ والبحرِ منهمُ ‏ ‏ ‏ ‏ بسابحةٍ دُهمٍ ، وسابحةٍ غُرِّ

أساطيلُ ليستْ في أساطيرِ من مضى ‏ ‏ ‏ ‏ بكلِّ غرابٍ راحَ أفتكَ من صقرِ

وجيشٍ كمثلِ الليلِ هولاً وهيبةً ‏ ‏ ‏ ‏ وإن زانه ما فيه من أنجمٍ زُهْرِ

وكلِّ جوادٍ لم يكن قطُّ مثله ‏ ‏ ‏ ‏ لآلِ زهيرٍ لا ، ولا لبني بدرِ

وباتت جنودُ اللهِ فوق ضوامرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ بأوضاحِها تُغني السُّراةَ عن الفجرِ[1]

---

(١) الضوامر : جمع ضامرة وهي الخيل .

فلا زلتَ حتى أيَّدَ اللهُ حزبَه — وأشرقَ وجهُ الأرضِ جذلانَ بالنصر

فروِّيتَ منهم ظامئَ البيضِ والقنا — وأشبعتَ منهم طاوىَ الذئبِ والنَّسْر[1]

وجاءت ملوكُ الأرضِ نحوك خُضَّعاً — تجرجرُ أذيالَ المهانةِ والصُّغْرِ

أتوا ملِكاً فوق السِّماك محلُّه — فمن جودهِ ذاك السحابُ الذى يسرى

فمنَّ عليهم بالأمانِ تكرُّماً — على الرغم من بيضِ الصوارم والسُّمْرِ[2]

كفَى اللهُ دِمْياطَ المكارهَ ؛ إنَّها — لمن قِبلةِ الإسلامِ فى موضعِ النحرِ

وما طابَ ماءُ النيلِ إلا لأنَّه — يَحُلُّ محلَّ الريقِ من ذلك الثغرِ

فلله يومُ الفتحِ يوم دخولِها — وقد طارت الأعلامُ منها على وَكْرِ

لقد فاقَ أيامَ الزمانِ بأسرِها — وأنسى حديثاً عن حُنَينٍ وعن بَدْرِ

ويا سعدَ قومٍ أدركوا فيه حظَّهم — لقد جمعوا بين الغنيمةِ والأجرِ

وإنى لمرتاحٌ إلى كلِّ قادمٍ — إذا كان من ذاك الفتوحِ على ذِكْرِ

فيطرُبنى ذاك الحديثُ وطيبُه — ويفعلُ بى ما ليس فى قدرةِ الخمْرِ

وأصغِى إليه مستعيداً حديثَه — كأنِّىَ ذو وَقْرٍ ، ولستُ بذى وَقْرِ[3]

يقومُ مَقام الباردِ العذبِ فى الظَّما — ويُغنِى عن الأزوادِ فى البَلَدِ القَفْرِ

فكم مرَّ لى يومٌ إذا ما سمعتُه — أقِرُّ به سمعى ، وأذكرُه فكرى

وها أنا ذا حتى إلى اليومِ ربَّما — أكذِّبُ منه بالصحيحِ من الأمرِ

لك اللهُ من أثنى عليكَ ، فإنما — من القتلِ قد أنجيتَه ، أو مِنَ الأسرِ

يقصِّرُ عنك المدحُ من كلِّ مادحٍ — ولو جاء بالشمسِ المنيرة والبدرِ

---

(١) البيض : السيوف . والقنا : الرماح : والطاوى : الجائع .

(٢) الصوارم : السيوف . والسمر : الرماح .

(٣) ذو وقر : به صمم .

يروى القنا بدم الأعادى

قال البهاء يمدح السلطان الصالح نجم الدين أيوب أخا الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل سنة ٦٢٢هـ ويصف شجاعته وتمثيله بالأعادى، وتشير هذه القصيدة إلى أن الصالح نجم الدين أيوب دعا البهاء إلى خدمته فمضى إليه ملبياً ، راجياً أن تتحقق آماله ، وارتبط البهاء بالصالح لا يفارقه فى ظعن أو إقامة ، وأغدق عليه السلطان من البر والعطاء ما جعله فى غنى عن غيره من الناس .

وعدَ الزيارةَ طرفُه المتملِّقُ ... وتَلافَ قلبي من جفونٍ تنطقُ

إنّى لأهوى الحسنَ حيثُ وجدتُه ... وأهيمُ بالقدِّ الرشيقِ وأعشقُ

وبليّتى كَفَلٌ عليه ذُؤابةٌ ... مثلُ الكثيبِ عليه صِلٌّ مُطْرِقُ(١)

يا عاذلى ، أنا من سمعتَ حديثَه ... فعساك تحنو ، أو لعلَّك ترفق

لو كنتَ منّا حيث تَسمعُ أو ترَى ... لرأيتَ ثوبَ الصبر كيف يُمزَّقُ

ورأيت ألطفَ عاشقَينِ تَشاكيا ... وعجبتَ ممّن لا يُحِبُّ ويَعْشَقُ

أيسومُنى العُذّالُ عنه تصبُّرًا ... وحياته قلبي أرقُّ وأشفَقُ ؟

إنْ عنَّفوا ، أو خوّفوا ، أو سوّفوا ... لا أنْثنى ، لا أنتهى ، لا أفْرَقُ

أبدًا أزيدُ معَ الوِصال تَلَهُّفاً ... كالعِقْدِ فى جيدِ المليحةِ يَقْلَقُ

ويزيدُنى تَلَفاً فأشكُر فضلَه ... كالمسكِ تَسْحقُه الأكفُّ فيَعْبَقُ

يا قاتلى ، إنِّى عليك لمشفِقٌ ... يا هاجرى ، إنّى إليك لشَيِّقُ(٢)

وأذاعَ أنّى قد سلوتُكَ مَعْشَرٌ . ... يا ربِّ ، لا عاشوا لذاك ولا بَقُوا

ما أطمعَ العذّالَ إلا أنّنى ... خوفاً عليكَ إليهِمُ أتَمَلَّقُ

وإذا وعدتُ الطرفَ فيك بهجعةٍ ... فاشهدْ علىَّ بأنّنى لا أصْدقُ

---

(١) الكثيب : التل من الرمل . والصل : الأفعى .

(٢) الشيق : المشتاق .

فعلامَ قلبُكَ ليس بالقلبِ الذى ... قد كانَ لى منه المحبُّ المُشْفِقُ

وأظن خَدَّك شامِتاً بفراقِنا ... فلقد نظرتُ إليه وهو مخلَّقُ

ولقد سعيتُ إلى العلاء بهمةٍ ... تقضى بسعيى أنه لا يُخْفِقُ

وسريتُ فى ليلٍ كأنَّ نجومَه ... من فرط غَيْرَتِها إلىَّ تُحَدِّقُ

حتى وصلتُ سرادِق المِلكِ الذى ... تقف الملوكُ ببابِه تسترزِقُ

ووقفتُ من ملكِ الزمانِ بموقفٍ ... ألفيت قلبَ الدهرِ فيه يَخْفِقُ

فإليكَ يا نجمَ السماء ، فإننى ... قد لاح نجمُ الدينِ لى يتألَّقُ

الصالح الملكُ الذى لزمانِه ... حُسْنٌ يتيه به الزمانُ ورَوْنقُ

ملك يحدِّث عن أبيه وجدِّه ... سَنَدٌ لعمرُكَ فى العُلى لا يُلْحَقُ

سجَدتْ له كلُّ العيون مهابةً ... أوَ ما تَراها حين يقبل تُطْرِقُ

رحبُ الجنابِ خصيبةٌ أكنافُه ... فلكم سديرٌ عندها وخَوَرْنَقُ[1]

فالعيشُ إلا فى ذراه مُنَكَّدٌ ... والرزق إلا من نَدَاه مُضَيَّقُ

يا عزَّ من أضحى إليه ينتمى ... وعلوَّ من أمسى بِه يتعلَّقُ

أقسمتُ ما الصنعُ الجميلُ تصنُّعٌ ... فيه ، ولا الخلقُ الكريمُ تَخَلُّقُ

يدعو الوُفودَ لمالِه فكأنَّما ... يدعو عليه فشملُه يَتَفَرَّقُ

أبدًا تحنُّ إلى الطرادِ جيادُه ... فلها إليه تَشَوُّفٌ وتَشَوُّقُ

يبدى لسَطْوته الخميسُ تطرُّباً ... فالسُّمْرُ ترْقُص، والسيوفُ تُصَفِّقُ

فى طىِّ لأمتِه هِزَبْرٌ باسِلٌ ... تحتَ العريكةِ ، وهو بدرٌ مُشْرِقُ[2]

يُرْوِى القَنا بدمِ الأعادِى فى الوغَى ... فلذاك يُثْمِرُ بالرءوس ويُورِقُ

---

(١) الأكناف : الجوانب .

(٢) اللأمة : الدرع .

يمضى فيقدُم جيشه فى هيبةٍ — جيشٌ يَغَصّ به الزمانُ ويشْرَق[1]
ملأ القلوبَ مخافةً ومحبّـــةً — فالبأس يُرْعِبُ ، والمكارم تُعْشَقُ
ستجوبُ آفاقَ البلادِ جيادُه — ويُرَى له فى كلِّ فجٍّ فيلقُ
لبّيكَ يا منْ لا مردَّ لأمرِه — وإذا دعا العيّوقَ لا يتعوّقُ[2]
لبّيـــك يا خيرَ الملوكِ بأسرِهم — وأعزَّ من تُحْدَى إليه الأَيْنُقُ
لبّيكَ ألفاً أيُّها المِلكُ الذى — جَمَع القلوبَ نوالُه المتفرقُ
فعدَلت حتّى ما بهـــا متظلّمٌ — وأنلت حتى ما بها مُسْتَرْزِقُ
أنا من دعوتَ وقد أجابك مسرعاً — هذا الثناءُ له ، وهذا المَنْطِقُ
ألفيتُ سوقاً للمكارمِ والعُلَى — فعلمتُ أن الفضلَ فيه يَنْفُقُ
يا من إذا وَعَدَ المُنى قُصّـــادَه — قالت مواهبه يقول ويَصْدُقُ
يا من رفضتُ الناسَ حين لقيتُه — حتى ظننتُ بأنهم لم يُخْلَقوا
قيّدتُ فى مصرٍ إليك ركائبى — غيرى يغرّب تارة ، ويُشَرِّقُ
وحللتُ عندَك إذ حللتَ بمعقِلٍ — يُلْفَى لديهِ ماردٌ والأَبْلَقُ[3]
وتيقّنَ الأقوامُ أنى بعدها — أبداً إلى رُتَبِ العُلا لا أُسْبَقُ
فَرُزِقْتُ ما لم يُرْزقوا ، ونَطَقْتُ ما — لم يَنْطِقُوا ، ولحقت ما لم يَلْحَقُوا

---

(١) شرق بريقه : غص .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

(٣) الأبلق : اسم حصن السموءل ، وفيه يقول :

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره — يعز على من رامه ويطول

يا أسفى

وهذه قصيدة من حجازيات البهاء ، يحن فيها إلى عيشه الوارف فى الحجاز ، ويأسى إذ شط به المزار ، ونأت به الديار ، وغاب عنه أحباؤه ، وهو من أجل ذلك لا يبرح الحجاز من خياله ، ولا يكاد ينفصل عن باله ، ويلتمس من أصحابه أن يعرضوا بذكره عند من يهوى لعل ذلك يدعوها إلى السؤال عن حاله :

أحنُّ إلى عهدِ المحصّبِ من مِنى ... وعيشٍ به كانت ترِفُّ ظِلالُه

ويا حبّذا أمواهُه ونسيمُه ... ويا حبّذا حَصباؤه ورمالُه !

ويا أسفَى ، إذ شطَّ عنى مزارُه ... ويا حزَنى ، إذ غاب عنى غزالُه

وكم لِىَ بينَ المروتين لُبانَة ... وبدرِ تمامٍ قد حوته حِجالُه

مقيمٌ بقلبى –حيث كنتُ– حديثُه ... وبادٍ لعينى – حيث سرتُ – خيالُه

وأذكر أيامَ الحجازِ ، وأنثنى ... كأنى صريعٌ يعتريه خبالُه

وياصاحبى بالخيفِ ، كنْ لىَ مُسْعِدًا ... إذا آن مِنْ بين الحجيجِ ارتحالُه

وخذ جانبَ الوادى كذا عن يمينه ... بحيث القَنا يهتزُّ منه طِوالُه

هناك ترى بيتاً لزينبَ مشرقاً ... إذا جئتَ لا يخفَى عليكَ جلالُه

فقل ناشدًا بيتاً ومن ذاق مثلَه ... لدى جيرةٍ لم يدرِ كيف احتيالُه

وكن هكذا حتى تصادفَ فرصةً ... تصيبُ بها ما رمتَه وتنالُه

فعرِّضْ بذكرى حيثُ تسمع زينبُ ... وقل ليس يخلو ساعةً منكِ بالُه

عساها إذا ما مرَّ ذكرى بسمعِها ... تقول : فلان عندكم كيف حالُه ؟

يا طول شوقي وحنيني !

يحن البهاء في هذه القصيدة إلى موطنه الأول بالحجاز ، حيث قضى صباه ، ويذكر عهوده الخوالي بين زمزم والمقام ، والمحصب وما دونه من الحجون ، وقد كان عيشه رغداً ، ووقته واسعاً . . .

سَقَى اللهُ أرضاً لستُ أنْسَى عهودَها ويا طولَ شوقي نحوَها وحنيني !

بلادٌ إذا شارفتُ منها نجومَها بدا النورُ في قلبي ، وفوقَ جبيني

منازلُ كانت لي بهنَّ منازلُ وكان الصِّبا إلْفي بها وقَريني

تذكّرتُ عهدًا بالمحصّبِ من مِنى وما دونه من أبطَحٍ وحَجونِ

وأيامَنا بين المَقَامِ وزمزمٍ وإخوانَنا من وافدٍ وقطينِ

ويا طيبَ نادٍ في ذرى البيتِ بالضحى وظلٌّ يقوم العودُ فيه بحينِ

وقد بكرت من نحو نعمانَ نسمةٌ تحدِّثُ عن أيكٍ بها وغصونِ

زمان عهدتُ الوقتَ لي فيه واسعاً كما شئتُ من جدٍّ به ومُجونِ

إذِ العيشُ نضرٌ فيه للعين منظرٌ وإذ وجهُه غَضٌّ بغيرِ غُضونِ

(ب) الشاعر الاجتماعي :

مناقب شتى

قال يمدح علاء الدين ابن الأمير شجاع الدين جلدك التقوى .

هذه القصيدة نموذج لما كان ينهجه البهاء في مدائحه ، فهو يقدم بالنسيب ، ويخلص منه في لطف وتوفيق إلى المديح ، ثم يفخر بشعره وأنت ترى أن الغرضين : الأول والأخير قد طغيا على المدح حتى لم يبق له من القصيدة التي عدتها عشرون بيتاً إلا أربعة أبيات كما ترى :

أغصنَ النَّقا ، لولا القَوامُ المهفْهَفُ لما كان يهواك المُعَنَّى المُعَنَّفُ[1]

ويا ظبيُ ، لولا أنَّ بفيك محاسناً حكينَ الذي أهوى لما كنتَ توصفُ

---

(١) النقا : القطعة من الرمل المحدودبة .

كَلِفتُ بغصنٍ ، وهو غصنٌ مُمَنْطَقٌ ... وهمتُ بظبي وهو ظبيٌ مشَنَّفُ

ومما دهاني أنه من حيائه ... أقول : كليلٌ طرفه وهو مرهفُ

وذلك أيضاً مثل بستان خدِّه ... به الورد يُسَمَّى مُضْعَفاً ،وهو مُضْعِفُ

فيا ظبي ، هلاَّ كان فيك التفاته ... ويا غصن ، هلا كان فيك تعطُّفُ

ويا حرمَ الحسن الذي هو آمنٌ ... وألبابُنا من حوله تُتَخطَّفُ

عسى عطفة للوصل يا واو صدغه ... عليَّ فإني أعرفُ الواوَ تعطفُ

أأحبابَنا ، أمَّا غرامي بعدَكم ... فقد زادَ عما تعرفون ، وأعرفُ

أطلتم عذابي في الهوى فترفَّقوا ... فبي كلَفٌ في حمله أتكلفُ

ووالله ما فارقتكم عن ملامة ... وجهدى لكم أني أقولُ وأحلفُ

ولكن دعاني للعلاء بن جلدك ... تشوّق قلب قادني وتشوّفُ

إلى سيِّد أخـــلاقُه وصفاته ... تؤدِّبُ من يثنى عليه وتُطرِفُ

أرقٌّ من الماء الزُّلالِ شمائلاً ... وأصفى من الخمر السُّلاف وألطفُ

مناقبُ شتَّى لو تكون لحاجب ... لما ذكرت يوماً له القوس خِندِفُ[1]

غدا من مداها حاتمٌ وهو حاتمٌ ... وأصبح عنها أحنفٌ وهو أحنفُ[2]

أتتك القوافي وهي تُحْسَب روضةً ... لما ضُمِّنَتْه وهو قولٌ مزخرفُ

ولو قصدت بالذمِّ شانيك لاغتدى ... وحاشاك منه قلبُه يتنطَّفُ

---

(١) حاجب : يريد به حاجب بن زرارة بن عدى الدارى التميمى وهو من سادات العرب فى الجاهلية رهن قوسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به . خندف : هى ليلى بنت حلوان بن عمران من قضاعة ، أم جاهلية ينسب إليها بطن من مضر من العدنانية .

(٢) حاتم الأولى : هو حاتم الطائى المشهور بالكرم . وحاتم الأخرى : المتقطع . وأحنف الأولى : هو الأحنف بن قيس أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية التميمى الملقب بالأحنف سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل فى الحلم . وأحنف الأخرى . من اعوجت رجله إلى داخل .

تَقَلَّدُ عارًا وهى درٌّ منظَّمٌ ... وتلبس حُزناً وهى بُرْدٌ مُفَوَّفُ
وتُصلِي جحيماً وهى فى الحسن جنَّةٌ ... وتسقى دِهاقاً وهى صهباءُ قَرْقَفُ(١)

يولى المنايا والمنى

قال يمدح الأمير النصير المطلي، ويهنئه بالقدوم :

ويعمد البهاء زهير فى هذه القصيدة إلى المدح من غير تقديم بالنسيب ، وأنت ترى فيها شيوع المحسنات البديعية، وذكره الممدوح بصفات الشجاعة والكرم والمجد والشرف والحلم، ثم اختم بذكر شعره فاخراً به ، والجديد فى هذه القصيدة تعبيره عن خواطره فى حالى غيبة الأمير المطلي وقدومه ... والقصيدة — بعد ذلك — معرض لثقافة البهاء وتلقى ضوءاً على الحال الاجتماعية فى عصره .

صفحاً لهذا الدَّهْرِ عن هَفَواتِه ... إذ كان هذا اليومُ من حسناتِهِ
يومٌ يسطَّرُ فى الكتابِ مكانُه ... كمكان بسمِ الله فى خَتَماته
مَطَلَ الزمانُ به زماناً آنفاً ... أَنِفَتْ ، وعاد لها إلى عاداته
والغيثُ لا يسم البلاد بنفعهِ ... إلاَّ إذا اشتاقت لوسميَّاته (٢)
يا معجزَ الأيَّامِ قرع صفاته ... ومجمِّلَ الدنيا بحسن صفاته
بل أحنفاً فى حلمِه وثباته ... بل حارثَ الهيجاء فى وثباته
بل كعبةَ المعروف، بل كعبَ الندا ... والماء يقسم شربه بحصاته
إن كنت غبتَ عن البلادِ فلم تغب ... من خاطرى إذ كنتَ من خطراته
لو كنت فتَّشتَ النسيمَ وجدتَه ... ودعاؤنا يأتيك فى طيَّاته
وكفى اهتماماً منهما بِكَ أن غدا ... كلٌّ يُريدك أن تكونَ لذاته
والمجدَ إن أمضى عزيمةَ ماجدٍ ... راح السكونُ يَنوب عن حركاته

(١) الدهاق : الكأس الممتلئة . القرقف : الخمر .

(٢) وسم المطر الأرض : أصابها الوسمى وهو أول مطر الربيع .

وأتى البشيرُ فلو يسوغ لواحد · منّا لقاسمه للذيذَ حياته
فاربأْ بعزك لم تَدَعْ من منصبٍ · يُفْضِى إلى رُتَبِ العُلا لم تأته
وتفرّعت للمجدِ منك ثلاثةٌ · كثلاثة الجوزاء فى جنباته
عن كل مهدىٍّ غدا فى مهدِه · يسمو إلى أسلافه بسِماته
أفضى إليه المشترى بسعوده · وأعاره بهرامُ من سطواته(١)
شرفتْ بنصرٍ فى البريّة معشرٌ · هو فيهمُ كالسِّن فوقَ لثاته
قوم هُمُ فى البيدِ خيرُ سُراتها · حسباً ، وهم فى الدهر خيرُ سَراته(٢)
شرفَ الزمانُ بكل نَدْبٍ منهمُ · متيقظٍ وهبَ العُلا غفواتِه
ألِفَ الندا ، ورأى وجوبَ صِلاته · كرماً ، ولم يفرِض وجوبَ صَلاته
يولى المنايا والمنى كالليث فى · غاباته ، والغيثِ فى غاياته
ذى عزمةٍ إن راحَ فى سَفراته · سكبت شبا الهندى من شفراته
يا منسكَ المعروفِ ، أحرم منطقى · زمناً ، وقد لبَّاك من ميقاته
هذا زهيرُك لا زهيرُ مزينةٍ · وافاك لا هرِماً على علاَّته(٣)
دعْهُ وحوليّاتِه ، ثم استمعْ · لزهيرِ عصرك بعضَ ليليّاته
لو أُنشِدَتْ فى آل جفنة أعرضوا · عن ذكر حسّانٍ وعن جَفَناته

جناب فيه للمجد مرتقى

قال يمدح الصاحب صفى الدين أبا عبد الله بن علىّ المعروف بابن شكر :

أحلتُ عليه بالمحبـــة موثِقا · وما زال قلبى من تجنّيه مُشْفِقا

---

(١) المشترى : نجم من السيارات .

(٢) السراة بالضم : جمع سار وهو السائر ليلا . والسراة بالفتح : جمع سرى وهو الشريف .

(٣) زهير مزينة : يريد به زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى المشهور صاحب الحوليات .
وهرم : هو هرم بن سنان أحد أجواد العرب .

وقد كنتُ أرجو طيفَه أن يُلِمَّ بي ... فأسهرني ، كيْ لا يُلِمَّ ويَطْرُقا [1]

ولي فيه قلبٌ بالغرامِ مقيَّدٌ ... له خبرٌ يرويه دمعيَ مُطْلَقا

كلِفتُ به أحوى الجفونِ مُهَفْهَفاً ... من الظبي أحلى ، أو من الغصن أرشقا

ومن فرطِ وجدي في لَماه وثغرِه ... أُعلِّلُ قلبي بالعذيبِ وبالنَّقا

كذلك لولا بارقٌ من جبينِه ... لما شِمْتُ برْقاً ، أو تذكرتُ أورقا

ولي حاجةٌ من وصله غير أنَّها ... مردَّدةٌ بين الصَّبابةِ والتُّقى

خليليَّ كُفّا عن ملامةِ مُغْرَمٍ ... تذكَّرَ أياماً مضت فتشوَّقا

ولا تحسِبَا قلبي كما قلتُما سَلا ... ولا تحسِبا دمعي كما قلتُما رَقا [2]

فما ازداد ذاك القلبُ إلا تمادياً ... وما ازداد ذاك الدمعُ إلا تَدفُّقا

إلى كم أرجِّي باخِلاً بوِصالِه ... وحتَّى متى أخشى القِلَى والتَّفَرُّقا [3] ؟

فحسبُ فؤادي لوعةٌ وصبابةٌ ... وحسبُ جفوني عَبرةٌ وتأرُّقا

على أنها الأيامُ مهما تداولت ... سرورٌ تقضَّى ، أو جديدٌ تمزَّقا

ولستَ ترى خِلاً من الغدرِ سالماً ... ولا تنتقي يوماً صديقاً فيَصْدُقا

إذا نلتَ منه الودَّ كان تكلُّفاً ... وإن نلتَ منه البِشرَ كان تملُّقا

ومما دهاني حرفةٌ أدبيَّـــةٌ ... غَدَتْ دون إدراكِ المطالبِ خندَقا

وإن شملتني نظرةٌ صاحبيَّةٌ ... فلستُ أُرَى يوماً من الدهرِ مُمْلِقا

وزيرٌ إذا ما شِمتَ غرَّةَ وجهِه ... فدعْ لِسواكَ العارضَ المتألِّقا

ذممتُ السحابَ الغرَّ يوم نَوالِه ... وحقَّرَ عندي وَبْلَها المُتَدَفِّقا

---

(١) الطيف : الخيال يلم في المنام .

(٢) رقا : رقأ أي تكفكف .

(٣) القلى : البغض .

وجدت جناباً فيه للمجدِ مرتقًى ... وفيه لذى الحاجاتِ والنجح ملتقى

إذا قلتُ عبدُ الله ثم عنيتَه ... جمعتُ به كلَّ التعاويذِ والرُّقى

بقيك من الأيامِ كلُّ ملمّةٍ ... ويكفيكَ من أحداثِها ما تَطَرَّقا

وكم لك فينا من كتابٍ مصنّفٍ ... تركتَ به وجهَ الشريعةِ مُشْرِقا

عكفنا عليه نجتني من فنونه ... فعلَّمَنا هذا الكلامَ المونَّقا

وكم شاعرٍ وافى إليكَ بمِدْحةٍ ... فزخْرَفَها مما أفدْتَ ونمَّقا

فإن حَسُنَتْ لفظاً فمن روضِك اجتنى ... وإن عذُبتْ شرباً فمن بحرك استقى

فلا زلتَ ممدوحاً بكل مقالة ... تريك جريراً عبدَها، والفَرَزْدَقا

وما حسُنت عندى وحقِّك إذ غدت ... هى التِّبرُ مسبوكاً، أو الدرُّ مُنْتَقى

ولا إنْ جرت مَجْرى النسيم لطَافةً ... ولا إن حَكَتْ زَهْرَ الرياضِ المعبَّقا

ولكنها حازت من اسمِك أحرفاً ... كستْها جمَالاً فى النفوسِ ورونَقا

بعض هباته المفاخر والمآثر والعلا

قال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة ٦٤٦ :

عرفَ الحبيبُ مكانَه فتدلَّلا ... وقَنِعْتُ منـــه بموعدٍ فتعلَّلا

وأتى الرسومَ ، ولم أجدْ فى وجهِهِ ... بِشْراً كما قد كنت أعهَدُ أوّلاَ

فقطعتُ يومى كلَّه مُتَفكراً ... وسهِرتُ ليلى كلَّه مُتَمَلْمِلا

وأخذتُ أحسِب كلَّ شىْءٍ لم يكُنْ ... مُتَحَرِّكاً فى فِكْرِى مُتَخَيلا

فلعلَّ طيفاً زارَ منه فردَّهُ ... سَهَرِى فعادَ بِغَيْظِهِ فتقوَّلا

وعسَى نسيمٌ بثَّ أكتمُ سرَّنا ... عَنْهُ فَرَاحَ يَقُولُ عَنِّىَ : قَدْ سلا

ولقد خشيتُ بأن يكونَ أمالَه غيرى ، وطبعُ الغُصنِ أنْ يتَمَيَّلا
وأظنه طلبَ الجديدَ ، وطالَما عتقَ القميصُ على امرئٍ فتبَدَّلا
أبدًا يرى بُعْدِى ، وأطلُبُ قُرْبَهُ ولو أنَّنِى جارٌ له لَتَحَوَّلا
وعلِقْتُه كالغُصْنِ أسْمَرَ أهيَفاً وعشِقْتُه كالظبْيِ أحْوَرَ أكْحَلا
فَضَحَ الغزالةَ والغزالَ : فتِلْكَ فى وَسَطِ السَّماءِ ، وَذَاكَ فى وَسَطِ الفَلا
عَجَباً لقلبى ما خَلا مِنْ لَوْعَةٍ أبدًا يَحِنُّ إلى زمان قَدْ خَلا
ورسومِ جِسْمٍ كادَ يَحْرِقُهُ الجَوى لو لم تَدَارَكْه الدُّموعُ لأشعلا
وهوًى حفظتُ حديثَه وكتمتُه فوجدتُ دمعى قد رَوَاه مُسَلْسَلا
أهوى التذَلُّلَ فى الغرامِ ، وإنَّما يأبَى صلاح الدِّينِ أن أتَذَلَّلا
مَهَّدْتُ بالغزَلِ الرقيقِ لمدحِه وأردتُ قبلَ الفَرْضِ أن أتَنَفَّلا[1]
ملك شمختُ على الملوكِ بقُرْبِه ولبستُ ثَوْبَ العزِّ منه مُسْبَلا
ورفعتُ صوتى قائلاً يا يوسفٌ فأجابنى ملكٌ أطالَ وأجزَلا
ثم التفتُّ وجدتُ حولِىَ أنعُماً ما كان أسرعَهَا إلىَّ وأعْجَلا
وهَصَرْتُ أغصانَ المطالبِ مُيَّساً ومريتُ أخلافَ المواهبِ حُفَّلا
قَهَرَ الزمانَ وقد عرانى صرفُه حتى مَشَى فى خِدْمَتِى مُتَرَجِّلا
وإذا نظرتُ وجدتُ بعض هِباتِه فيها المفاخرُ والمآثرُ والعُلى
يروى حديثَ الجودِ عنه مُسْنَدًا فعلامَ تَرْويه السَّحائبُ مُرْسَلا
من معشرٍ فاقُوا الملوكَ سِيادةً وسَمـادَةً وتَطَوُّلاً وتَفَضُّلا
وكأنَّ متنَ الأرضِ يومَ رُكُوبِهم يكسونَه بُرْدًا عليه مُهَلْهَلا
من كلِّ أغلبَ فى الهياجِ كأنَّما لبس الغديرَ ، وهزَّ منه جَدْوَلا

---

(١) اتنفل : أقوم بالنفل وهو فوق الفرض .

وإذا سألتَ سألتَ غيثاً مُسْبَلاً ... وإذا لَقِيتَ لَقِيتَ لَيْثاً مُشْبِلاً
مولاي ، قد أهديتُها لَكَ كاعِباً ... عَذْراء تبدو عُذْرَةً وتَنَصُّلا
حملت ثناءً كالهضابِ فأبطأت ... فاعذر بطيئاً قد أتى لك مُثْقَلا
عَرَفَتْ محبتَها لديك وحُسْنَها ... فأتت تُريك تَذَلُّلاً وتَعَلُّلا
بَدَوِيَّةٌ إن شئتَ ، أو حَضَرِيَّةٌ ... جمعَ الخُزامى نشرُها والمَنْدَلا[1]
لو ... أنها ممن تقدّم عصرُه ... مَنَعَتْ زيادًا أن يقولَ وجَرْوَلا[2]
غَزَلٌ ومدحٌ بتٌ أَغْرَقُ فيهما ... كالخمرِ مازجت الزلالَ السَّلْسَلا
فتألفت عِقْدًا يروقُ نِظَامُه ... والعقدُ أحسنُ ما يكونُ مُفَصَّلا
يا أيها المَلِكُ الذى دَانَتْ له ... كلُّ الملوكِ تَوَدُّدًا وتَوَسُّلا
فعلاهُمُ مُتَطَوِّلا ، وحَبَاهُمُ ... مُتَفَضِّلا ، وأتاهمُ مُتَمَهِّلا
يا مَنْ مديحي فيه صدق كلُّه ... فكأنما أتلو كِتاباً مُنْزَلا
يا مَنْ وَلاَئى فيه نَصٌّ بَيِّنٌ ... والنصُّ عند القومِ لَنْ يَتَأَوَّلا
ولقدْ حَلا عيشى لَدَيْكَ ولم أُرِدْ ... عَيْشاً سِوَاه ، وإنْ أَرَدْتُ فَلاَ حَلاَ
وشكرتُ جُودَكَ كلَّ شكر عالماً ... أنْ لا أقومَ ببعضِ ذَاكَ وَلاَ ، وَلا

---

(١) المندل : العود للطيب الرائحة .

(٢) زياد : يريد به زياد ابن أبيه أحد خطباء العرب المشهورين . وجرول : هو الحطيئة الشاعر .

ووالله ما زالت دمشق مليحة

قال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق سنة ٦٤٨ وكان متغير المزاج ثم عوفى :

لكم منىَ الوُدُّ الذى ليس يَبرَحُ ... ولى فيكمُ الشَّوْقُ الشديدُ المُبرِّحُ

وكم لىَ من كتْبٍ ورُسْلٍ إليكمُ ... ولكنها عن لَوْعَتى ليس تُفصحُ

وفى النفس ما لا أستطيعُ أبُثُّه ... ولستُ به الكتْب والرُّسْل أسمَحُ

زعمتم بأنّى قد نقضتُ عهودَكم ... لقد كَذَبَ الواشى الذى ليس ينْصحُ

وإلا فما أدرى عسى كنتُ ناسياً ... عسى كنت سكْراناً ، عسى كنت أمزَح

خُلقْتُ وفيًّا لا أرى الغدر فى الهوى ... وذلك خُلْقٌ عنه لا أتزحزحُ

سلوا الناسَ غيرى عن وَفائى بعهدِكم ... فإنّى أرى شكْرى لنفسىَ يَقبُحُ

أأحبابَنا ، حتى متى ؟ وإلى متى ... أعرِّضُ بالشكوى لكم وأُصرِّحُ ؟

حياتى وصبرى مذ هجرْتم كِلاهما ... غريبٌ ، ودمعى للغريبَين يشرحُ

رعى اللهُ طيفاً منكم باتَ مؤنِسِى ... وما ضرَّه إذ باتَ لو كان يُصْبِحُ

ولكن أتى ليلاً ، وعادَ بِسُحْرَةٍ ... دَرَى أنّ ضوءَ الصبحِ إن لاحَ يفْضَحُ

ولى رشأٌ ما فيه؟ قَدْحٌ لقادحٍ ... سوى أنه من خده النارُ تُقْدَحُ

فتنتُ به حُلْواً مليحاً وإنه ... لأعجبُ شىءٍ كيفَ يحلو ويملُحُ

تَبرّأَ من قتلى وعينى ترى دمى ... على خدِّه من سيفِ جَفْنيْه يسفَحُ(١)

وحسبىَ ذاك الخدُّ لى منه شاهدٌ ... ولكن أراه باللواحظ يَجرَحُ

ويبسمُ عن ثغرٍ يقولون إنه ... حبابٌ على صهباءَ بالمسكِ تنفَحُ

---

(١) يسفح : ينسكب .

وقد شهد المِسْواكُ عندى بطيبه ... ولم أرَ عدلاً وهو سكْرانُ يطفحُ(1)

ويا عاذلى فيه جوابُك حاضرٌ ... ولكن سُكوتى عن جوابكَ أصلَحُ

إذا كنتُ ما لى فى كلامِك راحةٌ ... فإنَّ بقائى ساكتاً لِىَ أرْوَحُ

وأسمرُ : أما قدُّه فهو أهْيَفٌ ... رَشيقٌ ، وأما وجْهُه فهو أصبَحُ

كأنَّ الذى فيه من الحسنِ والصِّبا ... تداخله زهوٌ به فهو يَمرَحُ

كأَنّ نسيمَ الروضِ هزَّ قَوامَه ... ليَخجَلَ غصنُ البانةِ المتطوِّحُ

كأن المُدامَ الصِّرْفَ مالت بعِطفِه ... كما مال ذِى فى الأُرجوحةِ المُترجِّحُ

كأنّىَ قد أنشدتُه مدحَ يوسفٍ ... فأطربَه ، حتى انثنى يَترنَّحُ

وإنَّ مديحَ الناصرِ بنِ محمدٍ ... ليصبو إليه كلُّ قلبٍ ويَجنَحُ

مديحٌ ينيــلُ المادحين جلالةً ... ومدحاً بمدحٍ ، ثم يربو ويَمنَحُ

وليس بمحتاجٍ إلى مدحِ مادحٍ ... مكارمُه تُثنى عليه ، وتَمدَحُ

وكلُّ فصيحٍ ألكنٌ فى مديحه ... لأنَّ لسانَ الجودِ بالمدحِ أفصَحُ

وقد قاسَ قوم جودَ يمناه بالحيــا ... وقد غلطوا ؛ يمناه أسخَى وأسمَحُ(2)

وغيثٌ سمعتُ الناسَ ينتجعُونه ... فأين يُرى غيلانُ منه وصَيدَحُ ؟

لئن كان يختارُ انتجاعَ بِلاله ... فإنَّ بِلالا نعتُه يَترشَّحُ

دعوا ذِكرَ كعبٍ فى السَّماحِ وحاتمٍ ... فليس يُعَدُّ اليومَ ذاك التسمُّحُ

وليس صعاليكُ العريبِ كيوسُفٍ ... تعالوا بنا للحق والحق أوضحُ

فما يوسفٌ يَقْرى بنابٍ مُسِنَّةٍ ... ولا العِرقُ مفصودٌ ، ولا الشاة تذبَحُ

ولكن سلطانى أقلُّ عبيدِه ... يتيهُ على كِسرَى الملوكِ ويرجحُ

---

(1) المسواك : العود الذى تُتَخَلَّلُ به الأسنان . والبيت مستمد من قول بشار :

يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر ... إلا شهادة أطراف المساويك

(2) الحيا : المطر .

وبعض عطاياه المدائنُ والقُرَى ... فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبحُ
فلو سُئِلَ الدنيا رآها حقيرةً ... وجادَ بها سِرًّا ولا يَتبجَّحُ
وإن خليجاً من أياديه للورى ... يُرَى كل بحرٍ عنده يتضحضحُ
فَقُلْ لملوكِ الأرضِ ما تَلْحَقونه ... لقد أتعب الغادى الذى يتروَّحُ
كثيرُ حياءِ الوجه يقطرُ ماؤه ... على أنه من بأسه النارُ تَلفحُ
كذا الليثُ قد قالوا حيِيٌ وإنه ... لأجرأُ من يلقَى جَناناً وأوقحُ
مناقبُ قد أضحى بها الدهرُ حالياً ... فها عِطفه منها مُوَشًّى مُوَشَّحُ
من النفرِ الغر الذين وجوهُهم ... مصابيحُ فى الظلماء بل هى أصبحُ
بهاليلُ ، أملاكٌ كأن أكفَّهم ... بحارٌ بها الأرزاق للناس تسبحُ
فكم أشرقت منهم شموس طوالع ... وكم هطلت منهم سحائب دُلَّحُ[1]
كذاك بنو أيوبَ ما زالَ منهمُ ... عظيم مرجَّى ، أو كريم مُمدَّحُ
أناسٌ هُمُ سنوا الطريقَ إلى العُلا ... وهم أعربوا عنها ، وقالوا فأفصحوا
ولم يَتْبعوا فى الناس من جاء بعدَهم ... لقد بَيَّنوا للسالكين وأوضحوا
لِيَهْنَ دمَشقَ اليومَ صحتُك التى ... بها فَرِحَت ، والمُدْنُ كالناس تفرَحُ
فلا زهرَ إلا ضاحك مُتعطِّف ... ولا دَوْح إلا مائس مُترنِّحُ
ولا غصنَ إلا وهو نشوان راقص ... ولا طيرَ إلا وهو فرحانُ يَصدحُ
وقد أشرقت أقطارُها فاغتدَى لها ... شعاع له فوقَ المجَرَّةِ مَطْرَحُ
وشرَّفتَ مَغناها فلو أمكنَ الوَرى ... لطافوا بأركانٍ لها وتمسَّحوا
ووالله ما زالت دمَشق مليحة ... ولكنها عندى بك اليومَ أملَحُ
عَرضت على خيرِ الملوكِ بضاعتى ... فألفيتُ سوقاً صَفقَتى فيه تَربَحُ

(١) دلح : جمع دالح وهى السحابة الكثيرة الماء .

وقد وَثِقَتْ نَفسى بأَنَّىَ عِندَه ... سأَزدادُ عزًّا ما بَقِيت وأُفلِحُ
وأَن خُطوباً أَشتكيها ستنجَلِى ... وأَنَّ أموراً أَبتَغِيها ستنجَحُ
وأَن صلاحَ الدين ذا المجدِ والعلا ... لِما أَفسدَت منى الحوادث يُصلِحُ
بشرِّقُ غيرى ، أَو يُغرِّبُ إِنَّنى ... لدى يوسفٍ فى أَنعُمٍ لستُ أَبرَحُ
أَمولاى ، سامحنى فإِنك لم تزَلْ ... تسامحُ بالذنبِ العظيمِ وتسمحُ
لك العذرُ ما لِلقولِ نحوك مُرتَقًى ... مقامُك أَعلى من مقامى وأَرجَحُ
فما كلُّ لفظٍ فى خطابك يُرتضَى ... وما كل معنًى فى مديحِك يصلحُ
أَتتك، وإِن كانت كثيرا تأَخَّرَتْ ... فإِنك تعفو عن كثيرٍ وتَصْفَحُ
وهبْ لى أَنساً منك يُذهِبُ وَحشتى ... ويبسُطُ قلباً ذا انقباضٍ ويشرَحُ
وجُدْ لىَ بالقرْبِ الذى قد عهدْتُه ... وأَرضَى ببعضٍ منه إِن كنتَ أَصلحُ

حـ ــ الشاعر الهجاء :

أَقبح من وعد بلا وفاء

وجاهلٍ طالَ به عَنائى ... لازمَنى وذاك من شقائى
كأَنَّه الأَشهرُ فى أَسمائى ... أَخرقُ ذو بصيرةٍ عمياءِ
لا يعرف المدحَ من الهجاءِ ... أَفعالُه الكلُّ على استواءِ
أَقبحُ من وعدٍ بلا وفاءِ ... ومن زوالِ النعمةِ الحسناءِ
أَبغَضُ للعين من الأَقذاءِ ... أَثقلُ من شماتةِ الأَعداءِ
فهو إِذ رأَته عينُ الرائى ... أَبو معاذٍ ، أَو أَخو الخنساءِ

ثقيل . . .

وثقيل كأَنما ... مَلَكُ الموتِ قربُه
ليس فى الناس كلِّهم ... من تراه يُحبُّه
لو ذكرتَ اسمَه على الْـ ... ـماءِ ما ساغ شربُه

حمقى ، منافقون ، ذوو عُجب

أرى قوماً بُليت بهم نصيبي منهم نَصَبي
فمنهم من ينافقُ لى فيحلفُ لى ، ويكذِبُ بي
ويُلزِمُنى بتصديقِ الـ ـذى قد قال من كَذِبِ
وذو عُجْبٍ إذا حدَّثـ ـتُ عنه جئتَ بالعَجَبِ
وما يَدْرى بحمد اللـ ـه ما شعبانُ من رجب
وما أبصرتُ أحمقَ منـ ـه فى عُجْم ولا عرب
وأحمق قد شقيتُ به بلا عَقل ، ولا أدَب
فلا ينفكُّ يَتبعُنى وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قَتلتُ له قتيلا فَهْو فى طَلَبى
لأمرٍ ما صحبتُهمُ فلا تسألْ عن السبب
يحسِّنُ عقلنـا أنَّا نصيدُ البازَ بالخرَب
وكنا قد ظننّا الصُّفـ ـرَ عند النَّقدِ كالذهب[1]
فلم نظفرْ بحاجتِنا وأشفَينا على العَطب

---

(١) الصفر : يقصد به النحاس .

كلامك والدولاب والطبل والرحى . . .

تكلمني بالأرمنيةِ جارتى — أيا جارتى ، ما الأرمنية من طبعى
ويا جارتى ، لم آتِ بيتكِ رغبةً — ولا أنتِ من يُرتجى لضرٍّ ولا نفع
دعانى إليك الليلُ والأينُ والسُّرى — فصادفت أمراً ضاق من حمله وسعى [1]
كلامكِ والدولاب والطبل والرحى — فلم أدرِ ما أشكوه من ذلك المجمع
كلامك فيه وحده لى كفايةٌ — كأن صخوراً منه تُقذف فى سمعى
لكِ اللهُ مالاقيتِ يا عربيتى — وماذا الذى عوّضتُ بالبانِ والجزع ؟ [2]
سأدعو على الجُردِ الجيادِ ؛ لأنها — سرت فأتتْ بى وادياً غيرَ ذى زرع

كيف لى منك خلاص . . .

يا ثقيلاً لى من رؤ — يتــه همٌّ طويلُ
وبغيضاً هو فى الحلْ — ق شجًى ليس يزولُ
كل فضل فى الورى أضـ — عافه فيك فضولُ
كيف لى منك خلاصٌ — أينَ لى منك سبيل ؟
حار أمرى فيك حتى — لستُ أدرى ما أقولُ
أنت واللهِ ثقيلٌ — أنت واللهِ ثقيلُ

---

(١) الأين : التعب والمشقة . السرى : السير ليلا .

(٢) الجزع : من الوادى حيث تقطعه .

هو فى المجلس قدم . . .

كلّما قلتُ استرحْنا جاءنا الشيخُ الإمامُ
فاعــترانا كلَّنا منـ ـه انقباض واحتشامُ
فهو فى المجلسِ قَدْمٌ ولنــا منه قدامُ[1]
وعلى الجملةِ فالشـ ـيخُ ثقيلٌ والسلامُ

غاب عنا ففرحنا . . .

وثقيــلٍ ما برِحْنا نتمنى البعــدَ عنه
غابَ عنّا ففرِحنا جاءنا أثقلُ منه

لا حسن ولا حسنى . . .

وذى خسةٍ وافيتُه عندَ حاجةٍ سمعت به لفظاً ، ولم أره معْنى
فوجهٌ ولا بِشْر ، ومالٌ ولا نَدًى لقدخابَ لاحسنٌحواه ، ولاحُسْنَى

خال من العقل . . .

ما العقل إلا زينةٌ سبحانَ من أخلاك منهُ
قُسِمَت على الناسِ العقو لُ وكان قِسْماً غبتَ عنهُ

---

(١) القدم : الأحمق . القدام : الكمامة .

تبًّا لها من لحية . . .

وأحمقَ ذى لحيةٍ كبيرةٍ منتشره
طالبتُ فيها وجهَه بشدةٍ فلم أره
معرفةٌ لكنه أصبحَ فيها نكره
ثورٌ غدا أعجوبةً بلحيةٍ مدوَّره
لو كان ذاك الثورُ عجـ ـلاً عبدتْه السَّمره
تبًّا لها من لحيةٍ كبيرةٍ محتقَره
عظيمةٍ لكنَّها ليست تساوى بَعَره
كم قريةٍ للنملِ فى حافاتِها ومَقبَره
يقسم عشرُ عُشْرِها يكفى رِجالا عَشره
يحسُدُها الخنزيرُ إذ يبصِرُها منتشره
ويشتهى لو أنه يَملِك منها شَعَره
قد نبتتْ فى وجهِه فوقَ عظامٍ نَخِرَه
باردة ثقيلة مظلمة منكدره
كأنها سحابةٌ فوق البلادِ ممطره
ما كان قطُّ ربُّها من الكرام البرره
قد تركت حاملَها منها بحالٍ مُنكره
إذا خطتْ أقدامُه كانت بها مُعثِّره
وإن مشى رأيتَ فو قَ الأرضِ منها غَبرَه
أطولُها قد رُويَت من ريقةٍ بالعذِره

وقد أتت خبيثةً مُنتنَـــةً مستقذَره

مضحكةٌ ما كان قـ ـطُّ مثلَها لمَسْخَرَه

فلو مضى السوقَ بها وزفَّهـــا بالمِزْمَرَه

لحصَّلَت له معْـ ـلٌ ضيعةٍ موفَّره

لخوفِ من يبصرها للجوفِ منها قَرقَره

د ـ الشاعر الوصاف :

بستان المآرب

لِلّهِ بستانى ومـــا قضَّيتُ فيه من المآربْ

لَهَوَى على زمنٍ به والعيشُ مخضرُّ الجوانبْ

ولكم بَكَرْتُ له وقد بَكَرتْ له أيدِى السحائبْ

فيروقنى والجوُّ منـ ـه ساكنٌ ، والقطرُ ساكبْ

والطلُّ فى أغصانِه يحكى عقودًا فى ترائبْ[1]

وتفتَّحتْ أزهارُه فتأرَّجَت من كلِّ جانبْ[2]

وبدا على دَوْحاته ثمرٌ كأذنابِ الثعالبْ

وكأنمـــا آصالهُ ذهبٌ على الأوراقِ ذائبْ

فهناك كمْ ذهبيَّةٍ لى فى الولوعِ بها مذاهبْ

---

(١) الطل : الندى . الترائب : جمع تريبة وهى مقدم الصدر .

(٢) تأرجت : تعطرت .

مسرات ودور . . .

حبذا دورٌ على النيـ ـل ، وكاسات تدورُ
ومسرّاتٌ تموجُ الـ ـأرضُ منها وتمورُ
وقصورٌ ما لعيش يلتُه فيها قصورُ
كم بها قد مرّ لى أسـ ـتغفرُ اللهَ سرورُ
كل عيشٍ غيرِ ذاك الـ ـعيشِ فى العالمِ زورُ
منزلٌ ليس على الأر ضِ له عندي نظيرُ

راح ، وروح . . .

هبَّ النسيم عليلا وهو النسيمُ الصَّحيحُ
وطاب وقتُك فانهضْ فالآنَ طاب الصبوحُ[1]
وخذ عن الكاسِ نوراً به يضيءُ الفسيحُ
من قهوةٍ طاب منها طعمٌ ، ولونٌ ، وريحُ
فى دنِّهـا هى راحٌ وفى الحشا هى روحُ
يابن الكرام إلى كم علىَّ أنت شحيحُ
أنت المعذِّب قلبي وقلبُك المستريحُ

---

(١) الصبوح : شراب الصباح وضده الغبوق .

رعى الله عهد مصر . . .

فرعى اللهُ عهدَ مصرٍ وحيًّا ... ما مَضَى لى بمصرَ من أوقات

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه ... مصعداتٍ بنا ومنحدرات

ولياليَّ بالجزيرة والجيـ ... ـزة فيما اشتهيتُ من لذّاتِ

بين روض حكى ظهورَ الطواويـ ... ـس وجوٍّ حكى بطونَ البزاةِ

حيث مجرى الخليجِ كالحيّة الرقـ ... ـطاء بين الرياضِ والجنّات

ونديم كما تحبُّ ظريفٍ ... وعلى كل ما تحبُّ موات

كل شيء أردتَه فهو فيه ... حسنُ الذات كاملُ الأدواتِ

يا زمانى الذى مضى يا زمانى ... لك منّى تواترُ الزفراتِ

يوم أغرّ . . .

فى هذه القصيدة كان شاطئ النيل مجلساً للهو اجتمع فيه البهاء زهير وصحبه الذين مثلوا ضروباً مختلفة من الناس : فمنهم المسلمون، ومنهم الأقباط . ومنهم الصالحون أرباب المحاريب ، ومنهم المساخير ، وأصحاب المواخير . . .

عــلا حسُّ النّواعير ... وأصوات الشحارير(١)

وقد طاب لنا الوقتُ ... صفا من غير تكدير

فقم يا ألفَ مولاى ... أدِرْها غيرَ مأمورِ

وخــذْها كالدّنانيرِ ... على رغم الدنانيرِ

أدِرْها فى سنى الصبحِ ... تزدْ نورًا على نورِ

(١) الشحارير : جمع شحرور ، طائر حسن الصوت .

عُقَارا أصبحتْ مثل هباءٍ غير منثورِ[1]

بدت أحسنَ من نارٍ رأتها عينُ مقرورِ[2]

نزلنـــا شاطئَ النيل على بُسْطِ الأزاهيرِ

وقد أضحى له بالمو جِ وجهٌ ذو أساريرِ

تسابقنا إلى اللهوِ ووافينـــا بتبكـــيرِ

وفينـــا ربُّ محرابٍ وفينـــا رب ماخورِ

ومن قـــومٍ مساتير ومن قوم مساخيرِ

ومن جِدٍّ ، ومن هزلٍ ومن حق ، ومن زورِ

فطَوْرًا فى المقاصيرِ وطورًا فى الدساكيرِ

وإخوان كما تدرى من القبط النّحاريرِ[3]

وفيهم كل ذى حسن من الإحسان موفورِ

وتال للمزامـــيرِ بصوت كالمزاميرِ[4]

وفى تلك البراتيسِ بدورٌ فى دياجيـــرِ

وجوه كالتصـــاوير تصـــلّى للتصاويرِ

ومن تحت الزنانيرِ خصـــور كالزنابيرِ

أتيناهم فمـــا بقّوا ولا ضنّوا بمخمورِ

لقد مرّ لنـــا يومٌ من الغرّ المشاهيرِ

---

(١) العقار : الخمر.

(٢) المقرور : المصاب بالقر وهو البرد الشديد .

(٣) النحارير : جمع نحرير وهو الحاذق الفطن العاقل .

(٤) المزامير الأولى : مجموعة أناشيد النبي داود . والمزامير الثانية : جمع مزمور وهو المزمر .

على ما خلتهُ من غيـ ـر ميعادٍ وتقدير
فقل ما شئتَ من قول وقدِّر كلَّ تقدير

نار ونور

هذا مجلس لهو وسرور شامل ، يتحدث الشاعر فيه عن الخمر وعتاقتها ، ولطفها وفعلها فى الشاربين ، كما يتحدث عما كان بالمجلس من الأزهار والرياحين ، والندامى والساقين ، والمغنى وأثره فى السامعين ، والطاهى ولطافته وظرفه وخبرته ، والقدور الهادرات الفائرات . . .

يومُنا يومٌ مطيرٌ ولنا كأسٌ تدورُ
ومُقامٌ تحسب الأرْ ضَ بنا فيه تسيرُ
أخذت منا عقارٌ أخذت منه الدهورُ
لطفت بالدن حتى قيل سرٌّ وضميرُ
فنيت إلا يسيرًا كلُّها ذاك اليسيرُ
فهى فى الكاسات نارٌ وهى فى الأحشاء نورُ
وكأنّ الكأس حقٌّ وكأنّ الرّاح زورُ
ومن الرّيحان والأزْ هار غضٌّ ونضيرُ
وندامى بهمُ العيـ ـش كما قيل قصيرُ
وسقاة مثل ما تَهـ ـوى شموس وبدورُ
ومُغَنٍّ هو فيها يحسبُ الناسَ أميرُ
ما له فيما يدانيـ ـه من الظرفِ نظيرُ
وهو إن شئت غنىٌّ وهو إن شئت فقيرُ
وإذا غنّى تموجُ الـ ـأرض منه وتمورُ

وتغيب القوم فى المجـ ـلس والقومُ حضورُ
ولنـا طاهٍ نظيفٌ وظريفٌ وخبيرُ
وقدور هـدرت فيـ ـه على الجمرِ تفورُ
مجلسٌ إن زرتنا فيـ ـه فقد تمَّ السرورُ
كلُّ ما تطلبه فيـ ـه مليحٌ وكثيرُ

دعوة إلى مجلس لهو . . .

رقَّ فى الجوِّ النسيمُ فتفضّلْ يا نديمُ
ما ترى كيف امحتْ من حُلّةِ الليلِ رُقومُ ؟
وكأن الفجـر نهرٌ غَرِقتْ فيه النجومُ
فاجلُ بالصَّهباءِ ليلاً بقيتْ منه رسومُ
واسبِق الشمسَ بشمسٍ لا تواريها الغيومُ
قهوةٌ رقَّت فما فى كأسها إلَّا نسيم[1]
بنت كرمٍ لم يفز قطٌّ (م) بها إلَّا الكريمُ
وعلى طينتِها من سالفِ الدهر ختومُ
لم تزل عند المجوسىِّ (م) لها قدرٌ عظيمُ
ولها الراهبُ فى الديـ ـر يصلِّى ويصومُ
وقليلٌ كلُّ ما يطـ ـلبُ فيها ويسومُ
ولقد طافَ بها سا قٍ رخيمٌ ورحيمُ

---

(١) القهوة : الخمر .

بارعٌ في كل ما تطـ   ـلبُ منه وتروم

ونديمٌ وكما تهـ   ـوَى حبيبٌ وحميمٌ

ليس يبدو منه ما تـ   ـعتبُ منه أو تلومُ

مطربٌ في صنعة الأل   حانِ والضربِ عليمٌ

ولعمرى إن تفضّلـ   ـت فقد تمّ النعيمُ

صاح خذها وهاتها

هذه القصيدة ذات الوزن الخفيف ، واحدة من قصائد كثيرة للبهاء ، تصلح للتلحين والغناء ، وفيها يتحدث عن الجو المهيأ للهو والشراب ، والخمر ونقائها وبهجتها للأعين والقلوب ، كما يدعو إلى رفع التكلف ، وإزالة الحواجز بين الندامى ، ويصف من يهواه ، ويعرض عن عذل العاذلين :

هات يا صاحِ غنّني   واملإ الكأسَ واسقني

قم بنا يا نديمُ نسـ   ـبِقْ أذانَ المؤذّنِ

أصبح الجوُّ في ردا   ءٍ من الغيمِ أدكنِ

وتبدّى الصّباحُ كالـ   ـبِشرِ في وجهِ محسنِ

صاحِ خذها ، وهاتِها   واجلُهـا لى وزيِّنِ

متُّ وجداً ولوعةً   فاسقنيهـا لعلّنى

من مُدامٍ كأنّما   كأسُها قلبُ مؤمنِ

فهْي نورٌ ، وما عدا الـ   ـنورَ منها فقد فَنِي

قهوةٌ ذاتُ بهجةٍ   في قلوبٍ وأعيُنِ

قد أقامتْ ، وعدِّ ما   شئت في قعر مَخزَنِ

فإذا ما أردتَهـا   سمِّهـا لى وسَمِّني

وارفعِ السترَ بيننا   لا تفكِّرْ بأنّني

خُلُقى من تَصَنُّعٍ للــورَى أو تزيُّن
فاصمــرى يزينُنى فرطُ هذا التَّمَنُّنِ
سيِّدى بعد ذا وذا هاتِ قلْ لى وبيِّنِ
لك ما شئتَ من رِضاً لست عندى بهيِّنِ
لى حبيبٌ فإن أكنْ لا أسَمِّيــه فافطنِ
إنَّ يوماً يزورنى يومُ عيــدٍ مُزيَّنِ
هو بدرٌ لمجتــلٍ هو غصــنٌ لمجتَنى
عاذلى فيه لا تُطِلْ أنا عنْ عاذلِى غَنِى
لستُ أصغى ولا أعِى خَلِّنى منك خَلِّنى

(هـ) الشاعر الوجدانى :

حكاية حال

يصور البهاء فى هذه القصيدة الأدوار التى مر بها ، فقد حكى هنا قصة حياته : ذكر عهد صباه ، ثم عهد شبابه وفتوته ، وما كان له فيه من لهو وأنس ، ثم خدمته الملك الصالح : وما كان يأخذ نفسه به من الأمانة والحفاظ على الحقوق ، ثم ما كان من حاله الزاهدة المتطوية بعد أن ترك خدمة الملوك توقف موقف المرشدين الواعظين ، أو المتلهفين على ماضيه فى ذكريات أليمة وحنين ، وأخيراً تأهبه للقاء الله . . .

أمُذَكِّرِى عهدَ الصِّبا بعدَ الإنابةِ والرجوعِ
أذكرْتَنِى أشياءَ مِنْ زمنٍ تركتُ بها وَلوعِى
أشياءَ ذقتُ لفقدِها ألَمَ الفِطامِ على الرضيعِ
نَسَجتْ عليها العنكبو تُ ، وغودرَت بين الضُّلوعِ
وإذا تقاضيتَ الجوا بَ فخذ جوابَك من دموعِى

ذهبَ الجديدُ من الشبا ... بِ فكيف ظنُّك بالخليعِ
ووددتُ لو دام الخلي ... عُ ، فهلْ إليه من شفيع ؟
ولكم طلبتُ إلى الربيـ ... ـعِ بفتيةٍ مثلِ الربيعِ
وفضحتُ أزهارَ الريا ... ضِ بحسنِ أزهارِ البديع
وسهرتُ فى ليلِ الصبا ... سهرًا ألذَّ من الهجوعِ
وطرقتُ خِدْرَ الكاعبِ الـ ... ـحسناء والخَوْدِ الشَّموعِ[1]
وسفرتُ للملِكِ العظـ ... ـيمِ الشأنِ والقدرِ الرفيعِ
وتركتـــه فى الأمر ينـ ... ـفذ فى الشريف وفى الوضيعِ
وبلغتُ ذاك ، ولم أكُنْ ... فيه لحـــقٍّ بالمُضيع
ثم ارعويتُ وصِرْتُ فى ... حدِّ السكينةِ والخُشوعِ
فزهدتُ فى هـــذا وذا ... فقلِ السلامُ على الجميع
فإليك عنِّى يا نديـ ... ـمُ فما صنيعُك من صنيعى
ما أنتَ من ذاك الطِّرا ... زِ ، ولا من البَزِّ الرفيعِ
أتريدُ بعدَ الشيبِ منِّى (م) صبوةَ الناشِى الخليعِ
لا ، لا وحقِّ اللهِ ما ... أنا بالسميعِ ولا المطيعِ
إنْ كنتَ ترجعُ أنت بعـ ... ـدَ الشيب ، فايأَسْ من رُجوعى
كيف الرجوعُ وقد رأيـ ... ـتُ الريحَ تلعبُ بالزُّروعِ
عارٌ رجوعُك بعدَ ما ... عاينتَ حيطانَ الرُّبوعِ
وحلَلْتَ فى ظِلِّ الجنا ... بِ الرَّحبِ ، والحرزِ المنيعِ
واعـــلمْ أَخَىَّ بأنّه ... لا بالسجودِ ولا الركوعِ

---

(١) الشموع فى النساء : المزاحة الضحوك اللعوب .

فهناك كم كرمٍ ، وكم لطفٍ ، وكم برٍّ منيعِ
احسبْ حِسابَك فى الذى تنويه من قبلِ الشروعِ
واجعلْ حديثَك فى النزو لِ مُقَدَّماً قبلَ الطلوعِ

فيا مؤنسى – لا فرق الله بيننا

بروحىَ من قد زارنى وهوَ خائفٌ كما اهتزَّ غُصنٌ فى الأراكة مائدُ(١)
وما زارَ إلا طارِقاً بعد هَجْعةٍ وقد قامَ واشٍ يتَّقيه وحاسِدُ
فلم أرَ بَدْرًا قبله بات خائفاً فهل كان يخشَى أن تغارَ الفرائدُ؟
وكنتُ أظن الحسنَ قد خصَّ وجهَه وما هو إلا قائمٌ فيه قاعدُ
فَدَيْتُ حبيباً زارنى مُتفَضِّلا وليس على ذاك التفضلِ زائدُ(٢)
وما كثرتْ منِّى إليه رسائلٌ ولا هَطَلت بالوصلِ منه مَواعدُ
رآنى عليلاً فى هَواه فعادَنى حبيبٌ له بالمكرُماتِ عوائدُ(٣)
فمتْ كَمَدًا ياحاسدِى ؛ فأنا الذى له صِـــلةٌ ممّنْ يُحبُّ وعائدُ
ولى واحدٌ ما لِى من الناسِ غيرُه أرى أنه الدنيا ، وإنْ قُلتَ واحدُ
فيا مؤنسِى ، لا فرَّقَ اللهُ بيننا ولا أقفرَتْ للأُنسِ منا معاهِدُ
ويا زائرًا قد زار من غيرِ موعدٍ وحقِّك إنى شاكرٌ لك حامِدُ

---

(١) المائد : المائل .
(٢) الفرائد : النجوم .
(٣) عاد المريض : زاره .

أنتم الناس أيها العشاق !

هكذا يتسامى البهاء بالحب ، ويسمو بالعشاق ، فالحب أخلاق الكرام ، والعشاق عنده هم الناس . . .

حُرِمت عَيْنِى منامى فَعلى الطَّيف سَلامى
لستُ أرضى من حبيب بِوِصالٍ فى المنــام
أنا يقظانُ أراه فى قُعودى ، وقيامى
عن يَمينِى ، ويسارى وورائى ، وأمــامى
وهو فى سرِّى ، وجهرى وسكوتى ، وكلامى
وهو ريحانى وروحى ونديمى ، ومُدامى[1]
أيُّهــا اللائمُ فيه لا تقصِّر فى مَــلامى
فمتى كَرَّرتَ ذكرا ه يزدْ فيه غرامى
لامَ فى الحبِّ أناسٌ وهو أخلاقُ الكرام
ما أرى الناس سوى العشّـ اقِ من كلِّ الأنامِ

قلبي عندك

سيِّدى قلبِيَ عِندكَ سيِّدى أوحشت عبدَكْ
سيِّدى قل لى وحدِّثـ نى متى تُنجِزُ وعْدَكْ ؟
أترى تذكرُ عهدِى مثل ما أذكرُ عَهْدكْ
أمْ ترى تَحفظُ وُدِّى مثل ما أحفظُ وُدَّكْ

---

(١) المدام : الخمر .

قم بنا إن شئت عندِى | أو أكُنْ إن شئتَ عندكْ
أنا فى داريَ وحدِى | فتفضلْ أنتَ وحدكْ

كن لى وحدى

مولاى كن لِيَ وحدِى | فإننى لكَ وحْدكْ
وكن بقلبك عندى | فإنَّ قلبى عندَكْ
لى فيكَ قصدٌ جميلٌ | لا خيَّبَ الله قصدَكْ
حاشاك تؤثِرُ بعدِى | ولستُ أُوثِرُ بعدَكْ
إن تنس عهدِيَ إنِّى | والله لم أنسَ عهدَكْ
أضعتَ ودّ مُحِبٍّ | ما زال يحفظُ ودَّكْ
مولاى ، إن غبتَ عنِّى | واسوءَ حالِيَ بَعْدَكْ

ثورة

وفى روح خفيفة ، وفى ثورة عنيفة ، وفى لغة مصرية عربية يقول الشاعر :

نَراكُم قَدْ بَدَا مِنكمْ | أمــورٌ ما عهِدناها
وعوَّضتُمْ بأقْــوالٍ | وما نجهَــلُ مَعْنَاها
كَشفْتُمْ بينَنَا أشيا | وقد كُنَّا سَتَرْناها
وطرَّقتُمْ إلى الغدرِ | طريقــاً ما سَلكْناها
وقبَّحتُمْ بِأسماءٍ | وحسَّــنتُمْ مُسَمَّاها
وكم جاءَت لنا عَنْكمْ | أحــاديثٌ رَدَدْناها

وأشيـــاءُ رأيناها وقُلْنـــا ما رأيناها

فلا والله ما يحسُـ ـنُ بين الناسِ ذِكْراها

قرأنا سورةَ السُّلْوا نِ عنكُم بل حَفِظْناها

وما زلتُمْ بنا حتى جَسَرْنا ، وفَعَلْناها

فرِجْلٌ تطلُبُ المَسْعَى إليكُمْ قدْ مَنَعناها

وعينٌ تتَمَنَّى أنْ تراكُم قد غَضَضْناها

ونفسٌ كلَّما اشتاقتْ لِلُقْياكُم زَجَرْناها

وكانتْ بينَنَا طاقٌ فها نَحْنُ سَدَدْناها

ولو أنكُم جنَّـــا تُ عدنٍ ما دَخَلْناها

وأمَّـــا الحالة الأُخرى فإنَّا قَدْ سَلَوْناها

وقد ماتت وصلَّينا علَيهـــا ودَفنَّـــاها

هَجَرْنا ذِكْرَها حَتَّى كأنَّا مـــا عَرَفْناها

وها نحنُ ، وها أنْتُمْ متى قَطُّ ذَكَرْناها

وفي النفسِ بقَايا من أحـــاديثٍ خَبَأْناها

فلوْ أرضتكمُ الأروا حُ مِنَّـــا لَبَذَلْناها

غضب

غضب الحبيب على البهاء . . . فقال هذه الأبيات يتغزل ، ويتودد ، وقد مضى على الغضب ليلتان . . .

يا قضيباً من لُجَيْنِ يا مليحَ المُقْلَتَيْنِ
كلُّ ما يرضيك عندى فعلى رأسى وعَيْنِى
ما لقلبي منك يا بد رُ سوى خُفَّىْ حنين[1]
ويرى الحسّاد أنّى منك ملآنُ اليدين
يا مليحاً أنا منه بين هُجران وبين[2]
إن تبدّى أو تولّى يا لها من فتنتين
فهو من قبلُ ومن بعـ دُ مليحُ الطُلْعَتين
هو بدرٌ قد تجلّى نورُه فى المشرقين
وكتابٌ سُطِّرَ الحسـ نُ به فى صفحتين
أين من يكسب أجراً بين من أهوى وبينى؟
راح غضبانَ فما كلّمـ ـنى مـنذ ليلتين

ما أنا فى شىء سوى الحب خاضع

ولعل حبيبه قد تمادى فى الصدود ، فزاد فى غيبته حتى صارت أربعة أيام فسجل البهاء خواطره فى هذه الأبيات . . .

حبيبى على الدُّنيا إذا غبتَ وحشةٌ فيا قمرى قلْ لِى : مَتَى أنتَ طالعُ
لقد فَنِيتْ روحى عليك صَبابةً فما أنت يا روحى العزيزةَ صانعُ

(١) عاد بخفى حنين : مثل يضرب للخيبة والإخفاق .
(٢) البين : البعد .

سروريَ أن تبقى بخيرٍ ونعمة ... وأنّى من الدنيا بذلك قانعُ
فما الحبُّ إن أخلصتُه لك باطلٌ ... ولا الدمعُ إن أفنيتُه فيكَ ضائعُ
وغيرك إن وافى فما أنا ناظرٌ ... إليه ، وإن نادَى فما أنا سامعُ
كأنّيَ موسَى حينَ ألقتْه أمُّه ... وقد حُرِّمتْ قِدْماً عليه المراضعُ
أظنُّ حبيبي حالَ عما عهدتُه ... وإلّا فما عذرٌ عن الوصل مانعُ
فقد راحَ غضباناً ولى ما رأيتُه ... ثلاثَة أيامٍ ، وذا اليومُ رابعُ
أرى قصدَه أن يقطع الوصل بيننا ... وقد سلَّ سيفَ اللحظ. والسيفُ قاطعُ
وإنى على هذا الجفاء لصابرٌ ... لعلّ حبيبي بالرضا لِيَ راجعُ
فإن تتفضّلْ يا رسولى فقل له ... محبُّكَ فى ضيقٍ وحلمُك واسعُ
فواللهِ ما ابتلَّت لقلبيَ غُلّةٌ ... ولا نشفتْ مِنّى عليه المَدامعُ
تذلَّلتُ حتى رَقَّ لى قلبُ حاسِدى ... وعاد عَذُولى فى الهوَى وهو شافعُ
فلا تنكِروا منّى خُضُوعاً عَهِدْتُمُ ... فما أنا فى شىءٍ سوى الحب خاضعُ

الله يحفظ قلبي والذى فيه

ويطول الهجران ، ويرسل البهاء رسولا يبتغيه وسيلة بينه وبين الحبيب الغضبان . . .

اقرأْ سَلامى على من لا أسمّيهِ ... ومن بِرُوحى من الأَسْواءِ أَفْديه
ومن أُعرِّضُ عَنْه حينَ أذكُرُه ... فإن ذكرتُ سِواه كنتُ أعنيه
أشِر بذكرِيَ فى ضمنِ الحديثِ له ... إن الإشارةَ فى مَعْنَاىَ تكْفِيه
واسألْه إن كانَ يُرْضِيهِ ضَنى جَسَدى ... فحبَّذا كلُّ شىءٍ كانَ يُرْضِيه
فليت عينَ حبيبي فى البِعَادِ تَرى ... حالِى وما بِىَ من ضُرٍّ أُقاسيهِ
هل كنتُ من قوم موسى فى محبّتِه ... حتّى أطالَ عَذَابى منه بالتيه

أحببتُ كُلَّ سَمِيٍّ في الأَنام له ... وكلَّ من فيه معنى من مَعانيهِ

يغيبُ عنِّيَ وأفكارِى تمثِّله ... حتى يُخَيَّلَ لى أنِّى أناجيهِ

لا ضيم يَخشَاه قَلبِي والحبيبُ بهِ ... فإنَّ ساكنَ ذاك البيتِ يَحْميهِ

من مثلُ قلبِي ؟ أو مَنْ مِثلُ ساكِنه ... اللهُ يَحفظُ قلبِي والذى فيهِ

يا أحسَنَ الناسِ يا من لا أبوحُ به ... يا من تَجَنَّى ، وما أحْلَى تَجَنِّيهِ !

قد أتعس اللهُ عيناً صرتَ توحِشُها ... وأسعدَ اللهُ قلباً صرتَ تأْويهِ

مولاى ، أصبحَ وجدى فيك مُشْتَهِرًا ... فكيف أسْتُره ؟ أم كيف أُخْفيهِ ؟

وصار ذكرىَ للواشى به وَلَعٌ ... لقد تكلَّفْتَ أمرًا لستَ تَعْنيهِ

فمن أذاعَ حديثاً كنتُ أكتُمه ... حتى وجدْتُ نسيمَ الرَّوْضِ يَرْويه

فيا رسولى تضرَّع فى السؤالِ له ... عساكَ تَعْطِفُه نَحْوى وتَثْنِيهِ

إذا سألتَ فَسلْ مَنْ فيهِ مكرمة ... لا تطلبِ الماءَ إلا من مَجاريهِ

وصال

ويتنجح الرسول فى استرضاء الحبيب ، فيكون لقاء بعد هجر ، وصلح بعد غضب ، ويقول البهاء فى مصرية خفيفة :

سمع الناسُ ، وقُلْنـا ... وافتَضَحْنا ، واسترَحْنـا

بتُّ والبـدرُ نديمى ... ففعلْنـا وتركْنا

باتَ يدعوه التَّصابى ... فسمِعْنـا ، وأطعْنا

وجعلنـاه يقينـاً ... بعد ما قدْ كان ظَنّا

شكرَ اللهُ لمن بشَّـرَ ... بالوصـل وهَنَّـا

لى حبيبٌ لىَ منه ... كلُّ شىءٍ أتمنَّى

فهو بدرٌ يتجلَّى وهو غُصنٌ يتثنَّى
كان غضباناً فلمَّا أن تلاقَينا اصطَلحنا
يتجنَّى ، ولَعمْرى حقُّه أن يتجنَّى
جمع الحسنَ وفيه غيرُ ذاك الحسنِ مَعْنى
من له مثلُ حبيبي قد حَوى حُسناً وحُسنَى
هاتِ حدِّثنى : وقلْ لى ما عَلى العاذلِ مِنَّا
نحنُ لا نسألُ عنه ما لهُ يَسْألُ عنَّا ؟ !

قبيل الرحيل عن مصر

أأرحلُ عن مصرٍ ، وطيبِ نعيمها وأىُّ مكانٍ بعدَها لى شائقُ
وأترك أوطاناً ثراها لناشقٍ هو الطيبُ لا ما ضُمِّنَته المفارق[1]
وكيف وقد أضحت من الحسن جنةً زرابيُّهـا مبثوثةٌ والنمارقُ ؟
بلاد تروقُ العينَ والقلبَ بهجةً وتجمع ما يهوى تقىٌّ وفاسقُ
وإخوانُ صدقٍ يجمع الفضلُ شملَهم مجالسُهم مما حوَوه حدائقُ
أسكانَ مصرٍ ، إن قضى اللهُ بالنوى فثَمَّ عهودٌ بيننا ومواثقُ
فلا تذكروها للنسيم ؛ فإنه لأمثالها من نفحةِ الروضِ سارقُ
إلى كم جفونى بالدموع قريحةٌ وحتامَ قلبى بالتفرّق خافقُ ؟
ففى كلِّ يوم لى حنين مجدَّدٌ وفى كل أرض لى حبيب مفارقُ
ستأتى من الأيامِ أعظمُ فرقةٍ فما لى آسعى نحوَها وأُسابقُ ؟

---

(١) المفارق : جمع مفرق ، كناية عن الرأس .

ومن خُلُقِي أنّي ألوفٌ ، وأنه ... يطول التفاتي للذين أُفارقُ
يحرّكُ وجدي في الأراكة طائرٌ ... ويبعثُ شجوي في الدُّجُنّةِ بارقُ[1]
وأقسمُ ما فارقتُ في الأرض منزلاً ... ويَذْكر إلاَّ والدُّموع سَوابقُ
وعندي من الآدابِ في البعدِ مؤنسٌ ... أُفارقُ أوطاني ، وليس يُفارقُ

عسى الله يطوى شقة البعد

سقَى واديًا بين العريش وبرقةٍ ... من الغيث هطّالُ الشآبيبِ هتّان[2]
وحيًّا النسيمُ الرطبُ عنّي إذا سَرَى ... هنالك أوطاناً إذا قيل أوطانُ[3]
بلاد متى ما جئتَها جئتَ جنةً ... لعينِك منها كلَّ ما شئت رضوانُ
تُمَثِّل لي الأشواقُ - أن ترابَها ... وحصباءَها مسكٌ يفوح وعِقيان[4]
فيا ساكني مصرٍ ، تُراكُم علمتم ... بأنّيَ ما لي عنكمُ الدهرَ سُلوان[5]
وما في فؤادي موضعٌ لسواكم ... ومن أين فيه وهو بالشرقِ ملآن؟
عسى الله يطوى شقّةَ البعد بيننا ... فتَهدأ أحشاءٌ ، وترقأ أجفان[6]
عليَّ لذاك اليومِ صومٌ نذرتُه ... وعندي على رأي التصرف شكرانُ

---

(١) الدجنة : الليل .
(٢) الشآبيب : جمع شؤبوب : الدفعة من المطر . الهتان : الغزير المنصب .
(٣) سرى : سار وأصله سار ليلا .
(٤) عقيان : ذهب خالص .
(٥) سلوان : نسيان .
(٦) ترقأ أجفان : تجف من الدموع .

أتمضي أنت منفرداً وأبقى؟

يعزُّ عليَّ فقدُك يا عليُّ ... ألا لله ذا الأجلُ الوحيُّ (١)

تكدَّرَ فيك صافي العيشِ لمّا ... عدمتُك أيها الخِلُّ الصَّفِيُّ

لئن أخليتُ منك مَحلَّ أُنسي ... فما أنا فيك من أسفٍ خَلِيُّ

فبَعدك ليس يُفرِحُني بشيرٌ ... وبَعدَك ليس يَحزُنني نَعِيُّ

ولو كان الرَّدَى بشراً سوِيّاً ... لهابك أيها البشرُ السَّويُّ

عصاني الصبرُ بعدك وهْو طَوْعي ... وطاوع بعدك الدمعُ العَصِيُّ

وهل أبقتْ لِيَ الأيّامُ دمعاً ... فيسعدني به الجفنُ الشَّقِيُّ

فيا جزعي تعزَّ فليس صبر ... ويا ظمئي تسلَّ فليس رِيُّ

أتمضي أنتَ منفرداً وأبقَى ... لقد غدرتك نفسُك يا وفيُّ ؟

وهل حقٌّ حياتُك يا زهير ؟ ... وهل حقٌّ وفاتُك يا عليُّ ؟

وحقّاً صار ذاك البحرُ يَبْساً ... وصوَّح ذلك الروضُ النَّدِيُّ

وأقلع ذلك الغيثُ المرجَّى ... فلا الوسميُّ منه ولا الوليُّ (٢)

لقد طوت الحوادثُ منه جسماً ... وليس لذكره في الناس طيُّ

مضوا بسريره وعليه نورٌ ... جَلِيٌّ تحتـه سرٌّ خَفِيُّ

وفي أكفـانه ندب سَرِيٌّ ... تخلَّفَ بعده ذكرٌ سَنِيُّ (٣)

على حين استعاض الذكرُ منه ... وحين أتى كما اندفع الأتيُّ (٤)

---

(١) الوحى : السريع .

(٢) الولى : أول مطر الربيع .

(٣) السنى : المرفوع .

(٤) الأتى : السيل الذى لا يدرك .

وكم درَّتْ مكارمُه لِعافٍ كما درَّت لأطفـال ثُدِيُّ
وكم أروى على ظمإٍ نَداه سقاه هاطلُ الغيثِ الرَّوِيُّ

هنيئاً له قد طاب حيًّا وميتاً

عليك سلامُ الله يا قبرَ عثمانِ وحيّاك عنى كلُّ رَوْحٍ وريحَانِ
ولا زال منهَلاً على تُربِك الحَيا يغادِيك منه كلُّ أوطَفَ هتّانِ[1]
لقد خنتُه في الودّ أن عشتُ بعدَه وما كنت في ودِّ الصديق بخوّانِ
وعهدى بصبرى في الخطوب يطيعنى فما لى أراه اليومَ أظهرَ عصيانى
فيا ثاوياً قد طيَّبَ الله ذكره فأضحى وطيبُ الذِّكْرِ عمرٌ له ثانى
وجدتَ الذى أسلاكَ عنى ، وإنَّنى وحقِّك ما حدَّثتُ نفسِى بسُلوانِ
وعُوِّضتَ عن دارٍ بأكناف جنَّةٍ وعوِّضتَ عن أهلٍ بحورٍ وولدانِ
فديت الذى فى حبِّه اتَّفق الورى فلو سئلوا لم يختلفْ فيه إثنان
لقد دفن الأقوامُ يومَ وفاته بقيَّةَ معروفٍ وخيرٍ وإحسانِ
وواروه ، والذكرى تمثِّلُ شخصه كأنَّهمُ واروه ما بين أجفانِ
بواجهنى فى كلِّ وقتٍ خيالُه كما كنت ألقاه قديماً ويلقانى
وأحسبُ لو ناديتُه وهو ميت لجاوبنى تحتَ التراب ، وناداني
هنيئاً له قد طاب حيًّا وميِّتاً فما كان محتاجاً لتطييبِ أكفانِ
صديقى الذى مذ مات ماتت مسرَّتى فما لىَ لا أبكيه والرزء رزآنِ
وكان أنيسى مذ بليتُ بغربةٍ وكنتُ كأنِّى بين أهلى وأوطانى

---

(١) الهتان : الهاطل المنسكب .

وقد كان أسلانى عن الناسِ كلِّهم ... ولا أحدٌ عنه من الناسِ أسلانى
كريمُ المحيَّا ، باسمٌ متهلِّلٌ ... متى جئتَه لم تلقه غيرَ جذلان
يَمُنُّ لمن يرجوه من غير مِنَّةٍ ... فإن قلتَ منّانٌ فقل غيرَ منّان(١)
فقدتُ حبيباً ، وابتليتُ بغربةٍ ... وحسبك من هذين أمران مُرّانِ
ومَا كنتُ عنه أملك الصبرَ ساعةً ... فما صار أقسانى عليه وألهانى!
هو الموتُ ما فيه وفاءٌ لصاحبٍ ... وهيهاتَ إنسانٌ يموت لإنسانِ
كذلك ما زال الزمانُ وأهلُه ... فَمِنْ قَبْلِنا كَمْ قد تَفَرَّق إلفانِ
وما الناسُ إلا راحلٌ بعد راحلٍ ... إلى العالَم الباقى من العالَم الفانى
وإلا فأين الناسُ من عهدِ آدمٍ ... ومن عهدِ نوحٍ ثمَّ منه إلى الآنِ

(١) المنان الأولى : المتفضل المتكرم . والمنان الثانية : الذى يمن بجميله .

المراجع

ابن الأثير : المثل السائر .
أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى العصور الصليبية .
البهاء زهير : الديوان .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة .
ابن جبير : الرحلة .
جلال الدين السيوطى : حسن المحاضرة .
جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديثة .
ابن حجة الحموى : خزانة الأدب .
ابن خلكان : وفيات الأعيان .
أبو شامة : الروضتين .
: ذيل الروضتين .
شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .
عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر .
على مبارك : الخطط التوفيقية .
ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب .
غوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) .
أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر .
القلقشندى : صبح الأعشى .
ابن كثير : البداية والنهاية .
مصطفى عبد الرازق : بحث فى البهاء زهير .
المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة .
السلوك لمعرفة دول الملوك .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
ياقوت : معجم البلدان .

الفصل الثالث

جوانب البهاء زهير

صفحة

الفصل الرابع
منتخبات من آثار البهاء زهير

صفحة

صفحة

تم طبع هذا الكتاب

على مطابع دار المعارف بمصر